@ketab_n
14.9.2015

المركز القومى للترجمة

خوان جويتيسولو

الأربعينية

ترجمة: عبير عبد الحافظ

2510

سلسلة الإبداع القصصى

الأربعينية

رواية

تأليف: خوان جويتيسولو
ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ

2014

Twitter: @ketab_n

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2510
- الأربعينية
- خوان جويتيسولو
- عبير محمد عبد الحافظ
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:
La Cuarentena
By: Juan Goytisolo
Copyright © Juan Goytisolo, 1991

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

Twitter: @ketab_n

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جويتيسولو ، خوان.
الأربعينية: رواية / تأليف خوان جويتيسولو؛ ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ .-
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.
عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة. المقـــــــاس: ١٤ × ٢٠ سم.
(سلسة الإبداع القصصى؛ ٢٥١٠).
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٨٩٥٦٩
١ - القصص الأسبانية.
أ- عبد الحافظ، عبير محمد (مترجم).
ب - العنوان.
جـ - السلسلة.

٨٦٣

رقم الإيداع ٢٢٣٥٠ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 718- 956- 9

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

Twitter: @ketab_n

إهـــــــداء

إلى أخـــي أحمـــد . .

مرشـــدي الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شـــكر واجـــب

فـــي البدايـــة أوجـــه الشـــكر العميـــق للكاتـــب الإســـباني خوان جويتيســـولو، عن هذا العمل المبدع «الأربعينية» الذي اقترب فيه من العوالم العربية الإســـلامية، وطرح رؤية استشـــراقية كاشـــفة بأعين غربية. وقبل أي شـــيء أستاذي أ.د. محمد أبو العطا، أحد فرســـان الدراسات الإسبانية الأجلاء فـــي مصر والوطن العربي، فترجمـــات أعمال الكاتب الإسباني خـــوان جويتيسولو إلى العربية بالتعاون مع المركز القومـــي للترجمة كانت بمبادرة منه، وكذلك ترشيحي لترجمة هذا العمل القيم. وفي النهاية لا يسعني إلا أن أشكر الشاعـــر أحمد الشهاوي الذي لم يدخر جهـــدًا في قراءة المخطوطة في صورتها النهائية.

عبير عبد الحافظ

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كلمة المترجمة

جويتيسولو و«الأربعينية» و الاستشراق الإسباني الجديد

1 - كونية النص السردي

يعد الكاتب الإسباني خوان جويتيسولو (برشلونة، 1931) أحد أشهر القامات الأدبية في الأدب الناطق بالإسبانية. تنوع نتاجه الأدبي ما بين الرواية، والقصة، وأدب الرحلات، والدراسات النقدية والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامه بقضايا كونية، والتعددية الثقافية، ورغبته الجادة وعمله الحثيث من أجل سبر أغوار عوالم مغايرة، والتعرف على الآخر معرفة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثل آراء النقاد ولجان التحكيم التي تناولت أعماله وارتأت التعددية والانخراط في الثقافات المتنوعة ليس فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء ودروبه بينها وبين الثقافة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التي تحل فيها الثقافة الإسلامية العربية ركنًا لا يقبل النزاع. بهذا الشكل تطل كتابات جويتيسولو بسماتها الكونية السردية لتجمع بين الشرق والغرب والأيديولوجيات الدينية والفكرية بأنواعها، وهو ما تتكئ عليه بنية رواية «الأربعينية» (1991).

Twitter: @ketab_n

وهو مـا أكدته لجنـة جائزة «خـوان رولفـو» المكسيكية حين منحت جويتيسولـو الجائزة الأدبية الرفيعة، وارتـأت نقاط القوة في كتابته حيث : «تعمق كتابـات جويتيسولو المتنوعة الحوار بين الثقافات العربية والمسيحية واليهودية (. . .). فمنذ صدور روايته «الكونت دون خوليان»، لم تحـد أعماله عن مسارها الذي خطته في ملاحم وانسجام واضح وإبداع حر وأصيل».

2 ـ حتمية الوجود العربي الإسلامي

بهـذا الشـكل فإن العالـم العربـي الإسلامي يعكـس واحدًا من الفضـاءات السردية المفضلة لدى الكاتـب الإسباني، الذي عرف عنـه ولعه الشديد بكل ما هو عربـي إسلامي في العديد من المناحي التاريخيـة والتراثيـة والأدبيـة والسياسية، وعلاقتـه المؤثرة في الغـرب بشكل عام و إسبانيا على وجه التحديـد ، فيعمد في كتاباته إلى التركيز على هذا الجانب وإبراز اللحمة التاريخية التي رسخت التواصل والاندماج الثقافي بين إسبانيا والعرب والإسلام. ويشير جويتيسولـو في كثير مـن الأحيان إلى الجانـب العربي الإسلامي المتجـذر في كيانـه، وهو ما يتسبـب في إثارة غضـب بعض بني جلدتـه، فيعبر عن دهشته من تجاهل هذا البـاع الثقافي في بلاده، الذي يقتصـر على بعض الاهتمـام المحدود من قبـل المستعربين المتخصصيـن فـي بـلاده، فيقـول: «يتجاهـل الجميـع التـراث العربي الإسلامـي بالكامل في إسبانيا باستثنـاء بعض المستعربين

Twitter: @ketab_n

المتخصصين، ذلك على الرغم من معرفتنا بأهمية هذا العنصر في تكوين بلادنا الثقافي».

ويستكمل جويتيسولو من هذه البؤرة الروائية المسيرة التي بدأها الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخس؛ حيث كان من أوائل الكتاب المعاصرين في الأدب الناطق بالإسبانية، الذين ألقوا الضوء على التراث العربي الإسلامي، ودمجه واستلهامه كمصدر للكتابة الجديدة في حقبة الطليعة في أمريكا اللاتينية بشكل عام، والأرجنتين بشكل خاص، ومن أبرز هذا النتاج مجموعة « الألف» التي برزت فيها عناصر سردية مستوحاة من ألف ليلة وليلة والقرآن، والفلسفة والتصوف الإسلامي.

فيقول في سيرته الذاتية :

«لكوني إسبانيًّا في قطالونيا، وفرنسيًّا في إسبانيا، وإسبانيًّا في فرنسا، ولاتينيًّا في أمريكا، ونصرانيًّا في المغرب، وعربيًّا في كل الأزمنة (. . .) كان الصراع العائلي بين ثقافتين أول إشارة في تصوري الآن لحالة مستقبلية من الانكسارات والتوترات النشطة، التي تؤكد لي ضرورة أن أكون خارج أسوار أيديولوجيات أو نظم أو كيانات مجردة اتسمت دائماً بالانكفاء على الذات والتقوقع».

في هذا الصدد، يسعى الكاتب الإسباني في أعماله المتأثرة بالوجود العربي بشكل عام ، وفي رواية الأربعينية بشكل خاص؛

Twitter: @ketab_n

لإقامة مقاربات أيديولوجية وموزاييك بنائي قوامه مشاهد مؤسسة على الباع الثقافي والتراث الإسباني والعربي الإسلامي، فينبذ بهذا الشكل الهيمنة الثقافية الغربية، واعتبار هويتها وتكوينها يتفوقان على جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية، لتقر بحسب إدوارد سعيد «بالتفوق الغربي على التخلف الشرقي».

3ـ الأربعينية واستشراف الربيع العربي

جدير بالذكر، أن الاهتمام الذي أولاه الكاتب الإسباني لهذا الجانب تمثل جليًّا في باقة من أعماله، ارتبطت بعالمنا العربي الإسلامي، وليس بالشرق في مجمله بشكل عام، مثل العديد من المستشرقين. فترى عناوين أعماله مثل «مقبرة»، «ملوك الطوائف»، «مقاربات إلى العالم الإسباني»، «مقاربات جاودي في كابادوثيا»، «القبلة»، «مشاهد من الحرب: سارايفو، الجزائر، فلسطين، الشيشان»، وغيرها من الأعمال..

وبالنظر إلى اهتمام الكاتب بكل ما هو عربي إسلامي يتم طرح الرؤى الثلاث التالية:

1- هل يهدف جويتيسولو من خلال الأربعينية إلى تقديم عمل استشرافي كاشف للعوالم العربية الإسلامية والصوفية ؟

2- أم يهدف لابتداع تكوين روائي يستند إلى العناصر العربية كمادة وأساس أسوة بـ بورخس مثلاً ؟

Twitter: @ketab_n

3-أم يسعى للجمع ما بين الغايتين في قالب واحد واستشراف مستقبل الأمة، فتصبح الأربعينية مرحلة تتنبأ بالثورة؟

بهذا الشكل يفسح الطريق لسطوة التأويل الأدبي الذي يعرفه هايدجر على أنه ليس شيئاً نفعله بل شيئاً علينا أن ندعه يحدث، فعلينا أن نفتح أنفسنا إلى النص بصورة سلبية «مخضعين أنفسنا لكينونته الملغزة التي لا تنضب، متيحين له أن يستنطقنا».

في كل الأحوال يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يومًا التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلة روحية صوفية، ينطلق منها؛ ليرصد في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعدًا إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج. يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و«المراتب السبعة» لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، مرورًا بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومى، وانسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي، إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والإسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيفيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث، وغيرهم. وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دومًا خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة؛ حيث

Twitter: @ketab_n

المساجد، والمقابـر والأضرحة، واستشـراف الأجواء السحرية الغامضة التـي تعقب الأربعينية، فضلاً عمـا للقاهرة من باع على المستوى العربي الذي تعتبر جغرافيًّا وسياسيًّا في مركزه.

وتدلـل الرواية على الرؤية التأملية والبصيرة النافذة التي تمكن الكاتـب الإسباني من خلالهـا من سبر أغـوار المجتمعات العربية بشـكل عام ومصر والقاهرة بشكل خاص، حتى إنه من خلال آلية قـراءة ذكية متأنيـة يصبح بالإمكان التنبؤ باقتـراب حدث جلل في هذه المجتمعات، وهو ما تمثل بعد ذلك في ثورات الربيع العربي؛ حيث تضافرت رؤية جويتيسولـو مع العديد من الكتابات الروائية المصرية، التي تنبـأت ودفعت بشكل أو بآخر من خلال الاستلهام والتصريح الروائي باقتراب موجة الاحتجاجات والتغيير في العالم العربي، حتى إنه يذكر ميدان التحرير، وتناقضات القاهرة البشرية والجغرافية واقتراب نقطة الانفجار، فيستشهد بوصف ابن بطوطة عـن المدينة (ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية)، ثـم يصفها في واقعهـا الحالى أنها مدينة «مـن دون رحمة» تنتظر وتستلهم الرحمة كطوق نجـاة بالشكل الذي يرتأيه شعبها، وكانت الثورة.

عبير محمد عبد الحافظ

القاهرة 2012

Twitter: @ketab_n

-1-

تفترض كتابة نص ما وجود شبكة من العلاقات الرقيقة، تربط ما بين العقدات التي تنسج هذه الشبكة، وتتلاحم فيها الأحداث: لحظات الحياة، الدعابات، الأسفار، المصادفات. وتمتزج القراءات المحتملة بالفانتازيا والصور، من أجل دمج هذا التشابك المؤلف من نقاط التضاد والالتقاء، وجدائل الذاكرة والومضات المباغتة، والتيارات المتعاقبة.

عنّت لي فكرة كتابة هذا النص عشيّة العام الذي سبق الحرب. كنت قد أحكمت – مسبقًا – هذا الموضوع عند التفكير في لحظة الانتقال إلى الآخرة، ودفعني إليه الرحيل المباغت لصديقة، ورغبتي في معاودة التواصل لعلاقتنا الرهيفة من خلال الحكي.

اعتدنا أن ننهل معًا من قطوف كتب ابن عربي، وميجيل آسين بالاثيوس، ونصوص متعددة تحكي قصة الإسراء والمعراج للنبي، والقصائد الصوفية، وكتاب «المرشد الروحي» لمولينوس الذي حقّقه أفضل شعرائنا الأحياء، وكانت هي تحمله في اليوم الذي غابت فيه عن ناظري.

وشكّلت الإشارات المرجعية للصوفي أبي العباس المرسي، المعلم الأكبر، وخاتم الأولياء إلى عين الخيال والمملكة الوسيطة، التي تحضر بها الأرواح حين تخرج من قبورها النواة الأولى لعمل

Twitter: @ketab_n

فرضـن وجوده في نفسي، بشكل قاطـع، حين قرأت هذه السطور التي سأتلوها:

«وحيـن تطيـر الأرواح إلـى العالـم الوسيطـي أو البرزخ، تواصل الحضور في أجسادها، وتصير هذه إلى صورة ناعمة مثل التـي يرى المرء نفسه عليها فـي الأحلام. فالعالم الآخر ما هو إلا مقـر تتبدل فيه الأشكال على الدوام، علـى النحو نفسه في الأفكار المارقة في الأبعاد الداخلية له».

وفـي اللحظة التي تأهبـت فيها لأبـدأ تأليف الكتـاب في صورته الماديـة، توفيـت. وبعد الوقـت القصير الـذي عبـرت خلاله إلى اللانهايـة، انطلقت من نفسـي، وأدركت على الفـور كينونة الخفة والسيولة.

تطلعـت إلى نفسي من الخارج، أصم وأعمى، بلا حماس، بلا شعـور، محاطًا باهتمام ذويي والحـزن الصامت لزوجتي. لبثت لبرهة في حجرتي، محاولاً ألا أقاطع برخاوة وجودي التحركات التعسـة، وانتظرت وصول المغسّل لأتيقن مـن أنه يقوم بالشعائر وفقًا لوصيتي الأخيرة. وعلى الرغم من أن مفهوم الزمن يتلاشى فـي النقطـة الواصلة ما بين العالميـن، أذكر أنني قمـت - ذهنيًا - بتنظيم نص هذا الكتاب وصف صفحاته خلال الفترة التي تهيم فيها الأرواح في فترة الأربعينية.

Twitter: @ketab_n

-2-

وأيضًا هناك؟

تمكنت النغمات الأولى للكونشرتو من الاستيلاء بخفة ونعومة على الأجواء المحيطة بألفة مُترعة يشوبها الغموض.

أكنت أعبر بهو الفندق الشاسع؟ أكنت أصعد بالفعل في هذا المصعد بهذه السرعة؟ أكنت أطير على ارتفاع 9 آلاف متر وعلى متن طائرة تابعة للخطوط الجوية التركية، مثلما حدث قبلاً، وأذكره جيدًا، خلال رحلة طيران داخلي ما بين مدينتي إرزوروم وأنقرة؟ هل انبعثت هذه الأصوات من أجهزة مكبرة للصوت، خُبئت ببراعة ضمن تصميم سياحي وظيفي، أم هي العلبة المبطنة بنسيج ناعم التي تحمل الزبائن الصامتين المهذبين، ثم تجعلهم يهبطون بعد ذلك؟ أم هو اصطفاف مقاعد الطائرة في لحظات التوتر التي تسبق إقلاع نعش ما في هذه الطائرة أو هبوطه؟ كيف يمكن تفسير هذه النغمات الدقيقة التي بدت كأنها تنبعث من أماكن مبهمة بلا نهاية من هذا الفضاء الخاص بعالم الأحلام، ضبابي وغير حقيقي؟ ربما تكون قد انبعثت من بحر سحيق بلا ضفاف يعكر تأمله النظر! أم تكون أثرًا مشعًا من مسرح الأضواء، ومضات، بريق، شرارات، مع إخفاء التقلبات غير القابلة للكشف؟

Twitter: @ketab_n

أو لعلها من أصل ضوئي صافٍ، مثل الهالة التي كانت تحيط بها حين تغمرها خيوط الضوء المصبوغة المترعة، لتفحص باهتمام ساكن الجبال الوعرة الشاحبة، ذاتها القمم التي تستقر فوقها السحب والسماء الصافية الوادعة كأنها عمامات، فيبدو سموها الخالص.

قالت: لكن لم يكن هناك مصاعد أو فنادق، أو حتى طائرات. لو كانت موجودة بالفعل لاصطدما بها في طريقهما. على بقائها هناك طوال هذه المدة، لم تلمح طائرة أو تسمع أزيزها، بالرغم من مراقبتها الدائمة.

علت وجهها ابتسامة بينما كانت تتحدث، مثل تلك الحقبة التي اعتادت فيها أن تتردد بانتظام على الأستوديو ومعها النصوص منسوخة على الآلة الكاتبة، وكما اعتادت كانت تبدو على وجهها تلك النظرة حين تخرج من حقيبتها علبة السجائر «جولويزيز بلوز»، فتشعل سيجارة، وتبحث بعصبية بادية بين أكوام الكتب المتراكمة والمجلات عن منفضة سجائر، عادة لم تتخلص منها في أثناء حديثنا، على الرغم من وضوح الأمر، فلم تكن هناك حقيبة ولا تبغ ولا ولاعة، لكن يبدو أنها كانت خاضعة لاصطناع ملامح وحركات جوفاء، أو الانصياع لعادة تعرفها ببديهتها، وإن لم تعد ذات نفع الآن.

من أين جاءت يا ترى هذه النوتة الموسيقية كثيفة الألحان لهذا الكونشرتو، الذي انسابت ألحانه في عالمه السابق؛ كأنها الوحيدة

Twitter: @ketab_n

من نوعها، فـي تناغم محكم ما بين الشقاء والحنين؟ أكان الصوت القاسـي للجيتار الذي يعزفـه الأعمى؟ أم اللحـن الممزق لعازف الناي في جذوة نشوته البهيجة.

حدق كل منهمـا بالآخر، تقاسما الاضطـراب الذي شعرا به، منبهرين بالبريق المتنامي للفلك الـذي يتحركان فيه، مشعًّا يفيض نـوره منسكبًا عليهما، يغمرهما، مثله مثل الأشعة السينية، يخترق كيانهما وعظامهمـا، فيبدو أنهما منبهران بالبريق والفيض الكثيف الذي يشع بهما جسداهما أثناء خلوة مباغتة وتلقائية مع النفس.

قالـت إنها لم تتفاجأ حين رأته يصل، كان فراقهما قاسيا. تنبأت بغموضـ أن علاقتهما لم تنقطـع. أرادت أن تخبره بشيء ما على عجل، ولم تستطع، ما حدث ببساطة أنه قد تأجل بعض الوقت.

والآن كل شـيء سهل ويسير، بالرغم من أن الأحزان السابقة كانت تدفعها إلـى البحث في الدخان عن أي دعم، وإن كان هينًا. كانت قريبة منه وفي الوقت نفسه بعيدة، كأنها غارقة في حلم آخر، إلا أنـه يتركها ساكنة، تشعر بخـواء، بالرغم من عاطفته الشحيحة غير الكافية.

هل تسبب الندم والعاطفة التي جانبت اللقاء بعد انقطاع مفاجئ، لـم تستوعبه، في جعـل دموعها تفيض في عينيهـا الجافيتين، تلك

Twitter: @ketab_n

الدموع التي غاصت في ذاك الهجران الداخلي، وإن كان متجذرًا من أثر إيمان راسخ، بمنأى عن التوبة والألم؟

في نصف الدائرة الرمزي، ذاك المكان الذي تلتقي فيه الأطياف الصديقة الأليفة منذ أزمان سحيقة، وصار تدريجيًّا مثل الصحراء نتيجة للخراب والوباء وكبر السن. لماذا قابلها هي بالذات، ولم يلتق بمسافر أخر ممن ولجوا حديثًا هذا العالم الرهيف؟ ألم تكن تحتاج في موضعها هذا إلى دواء ناجع، بدلاً من مسكنات وحسب؟

ما الطرق التي دلتها على نفسها، كأنها عادت إلى مكانها الأثير، عبر هذا المجال الضبابي الخفيف غير المحدود؟ أهو التلاحم القادر على استدعاء الكونشرتو أم هي علامة مطمورة أكثر حميمية؟

للمرة الأولى، تأتي إليه من دون أن تكون بحاجة إلى استشارته بأمر ما، أو للاستفادة من معرفته، التي اعتاد أن يطلق عليها بسخرية معرفة عوراء، شعر أنه بعيد عنها وعن الملمس الناعم لتفاصيل جسدها.

هناك ستكون قادرًا على الاستفادة من خبرتهما المحتملة، والحنكة المكثفة التي حولت الذهول المبدئي لخفتها إلى حالة من الغبطة.

كانت تحادثه وقد بدا وجهها رقيقًا ناعمًا، مثل وجه شخص لا يسرف في الأمور الظاهرية، ويظل هادئًا في أعماق نفسه. شعرها

Twitter: @ketab_n

الخفيف، وعيناها الزرقاوان والغمازتان اللتان لا تخطئهما العين، حين تبتسم برقة وشيء من الخفر.

جعلا يصفقان ويلهوان بينما يستمعان للكونشرتو.

البرق والبريق المتقطع النابض يتزايد ضوؤهما الكثيف في سماء عليا، حيث لا شروق ولا غروب، لا يمين ولا يسار، لا علو ولا دنو، أحاطت بهما سحب في شكل خيوط، سائلة أم كثيفة، لم يعرفا أهو ذاك السحاب الرقيق، أم المتراكم، أهي غيوم أم سديم؟

أكان كل هذا شبيهًا بالماضي، مثلما زعمتْ؟ أم أن الأمر محض غواية أم حيلة ولهو بالحواس؟

شرعا يسيران متشابكي الأيدي. يتبقى لك أربعون يومًا، قالت لـه: بعدها يتغير مقرك، ومن يعلم هل سنـرى بعضنا البعض مرة أخرى؟ سأرشـدك وأجعلك ترى ما رأيته أنـا منذ أن ابتعدت عن كل مـا هو محسوس بينما أرتقي درجـات السلم. اصغَ للموسيقى، ونغماتهـا الحزينة النافـذة. استبدلوا بجيتـار الأعمى صوت الناي الذي يأسرك ويعزلك عما حولك.

لا تخطـط لشـيء، لا تخـطُ بقدمك. ألـم تخبرني أنـك أهديت زوجتـك فـي لقائكمـا الأول أسطوانـة لـ «ميلز دافيـز» عنوانها «كونشرتو أرانخويث»؟

Twitter: @ketab_n

-3-

أطللت برأسك، أو بما خلت أنه رأسك، من دون أن تتمكن من التيقن من هذا الظن بالنظر إلى مرآة تغيثك، فتطلعت إلى المشهد القاسي لأمم بأكملها، آلاف وآلاف المخلوقات الغريرة العمياء، الهاربة من أراض متكلسة وحجرية، وسط مئات الغابات والأنهار الجافة. أكان تهديدًا مبدئيًا لألفية مشئومة، من شأنها تشتيت الشعوب، في صخب مبهم ملتبس، في كل الاتجاهات التي تهب فيها الرياح؟ هل كانوا يبحثون عن ملاذ في ذاك البحر الذي تكتنفه الغياهب الكثيفة المتكدسة، هربًا من جهنم الشرهة الحارقة، السلاح النووي أو الحرب الكيميائية؟

تقدمت بخطى حثيثة عبر المشهد الخرب ومصابيح السيارة التي كنت تستقلها تكشف الأشباح والظلال البائسة التي حجبت عنها الرؤية، تتحسس طريقها في الظلام، وبأيديهم زجاجات من الشراب الرخيص، بينما تتوهج جذوة الرعب الرابضة في مقلات أعينهم.

إلي أين كانوا ذاهبين، وممن كانوا يهربون؟

هل تحققت تهديدات الأجساد الرخوة، هذه الأجساد المائعة، المدن بأطلالها، الأعضاء المبتورة لعدد لا يحصى من الضحايا

Twitter: @ketab_n

المتبعثـرة في بحور من الدمـاء؟ أم أن المسألـة تتعلق بحشود من الممسوسين الذين لاذوا بالفرار خوفًا من العقاب الوشيك؟ قالت له كأنهـا تقرأ أفكاره: إن هؤلاء يجولـون الأرض ليمحوا مثلهم العليا الميتة وعقائدهم المتعفنة.

كانـت السيارة قديمة من طـراز (DKW) يعـود تاريخها إلى طفولتـك، ربما تكون لادا متهالكة وقذرة، تتحرك فيما يبدو بحذر ومن تلقاء ذاتها كيفما اتفق.

مجموعـات مـن العصابات الثملـة، أفرادها غزيـرو الشعر، ينبثقـون مـن الظـلام، فيصبون علـى كـم اللعنات بلغـة بدائية، تعبيراتها غامضة، ينطقـون بالأفعال في صيغة المصدر من دون تصريفهـا. بعضهـم كان يجري مثل الأرانـب البرية المذعورة، كأنهـا تفاجأت خـلال جولتها الليليـة، أو مثل الهـوام التي تقترب من اللهب فتحـرق. عملت عندئذ علـى أن تتجنبهم، فكانت ترسم خطوطًـا علـى الإسفلت الذي بدت فيه حفائـر غائرة مثل علامات الجديري، بسرعة شديدة مصحوبة بترقب.

انزلقـت السيارة في طريقهـا بجدارة. على الرغـم من قدمها ومحركها المتهالك، كانـت قادرة بأعجوبة على تلافي مجموعات من الأشخاصـ الهائمين المحملين بكومات، وسلالاتهم المنسوخة متراكبة مثل عناقيد العنب الهلوع.

Twitter: @ketab_n

تريـن هجرات متتابعة، وجثثًا أخرجـت من أجداثها بكل حقد، وتماثيـل ضخمة انتزعت مـن قواعدها وتم تحطيمهـا بمطرقات، وكتبًـا عقائدية وسياسية أساسية ألقيت فـي النار، وحرق العظام، وشـوارع وميادين تنزع عنهـا أسماؤها، وأجسـاداً مكبلة تتحول لرمـاد، ومنازل متهدمـة باسم سجـل العار المشيـن، وشخوصاً هامـدة، ذابلـة، تالفـة، فوضـى، وفرقة مـن الممثليـن الجائلين المحتاليـن. وقطعاناً ترعاها الذئاب بدلاً من الرعاة، لا مكان لذرة من الحقيقة، لا يوجد سوى كومات من التراب، أو جبال هشة.

هـل اقتربا بعد ذلـك من رؤيـة الأسطح الحلزونيـة؟ سماوات فلكية، دوائر الزهرة الصوفية، العوالم القمرية المنشقة من الفضيلة العارفة التي تضيء وتلهب الشمس الحقيقية؟ أم أن الأمر مثلما قرأ قبل العبور، محض خيالات و أكاذيب؟

لا تفقد صبرك، لا تكن عجولاً. على الرغم من أنني سبقتك إلى الخبرة والإدراك من دون حواس، فلم أر شيئًا بعيني رأسي ولا حتـى في برامـج الحلقـات التليفزيونية. هـؤلاء البشر يكتشفون- مثلمـا أعلن مواطـن لك قبل أن يجـيء إلى هنا بكثيـر- أنها ليست هذه النمـاذج الرافضة للمجتمـع، عديمة الأخـلاق، الإجرامية، الهائمـة، حثالة المجتمع الهمجيـة، مثلما كانـت تصورهم أجهزة الدعايـة الخاصـة بالأنظمـة الحاكمة، بـل هم مريـدون آخرون

Twitter: @ketab_n

لمعلمين «يمدون الرياح بنظريات خادعة، يرمون الأحجار على أنهـا خبز، والأوراق على أنها فاكهة، وبدلاً من الطعام الحقيقي، يطرحـون أديمًـا قاسيًا مختلطًـا بالعسل المسمـم». يحرقون الآن بغضـب الأصنام التي عبدوها، ويلعنـون التضحية التي بذلوها بلا طائل لأجيال طويلة متعاقبة.

غالبـك النوم بينما تقود السيـارة، ورأيت متجـرًا هائلاً مكتظًا باللوحـات، والصـور والتماثيـل وأنصـاف التماثيـل، : «للدليل المرشـد» و«المنقذ» و«أبـى الأرض»، هيئة صلبـة، ذات رأس ضخـم، وفي أشكال متعددة بكامل الأبهـة والهندام الذي استوحاه قانون يدلـل على غبائهم المفـرط كثمن قامـوا ببذله، على صهوة جواد مرتديً ازي جندي الدرك، وبحوذته سيف لامع.

يشير إلى مستقبـل مشرق، وتنطبع على محياه دلائل الصرامة والنفاذ الجديرة بشرطي ينظم سير المرور. يرتدي بذلته الرسمية تعلو رأسه قبعة طويلة، فيوحي سمته بهيئة الساحر أو المخادع.

يرتدي بذلة «اسموكينج»، صديري مُنَشًّى، وياقة قميص على هيئة جناحي طائر، مثل معلم رقص يدهن شعره بالفازلين. تزين وجهه عيناه الزرقـاوان المتأملتان، وحاجبـاه الكثيفان مثل خبير التنويم المغناطيسي.

Twitter: @ketab_n

يبـدو مثل أينشتين في معمله للبحـوث العلمية، بينما يداعب فتاة مراهقة، بريئة، شقراء، باسمة، مفعمة ببهجة سماوية.

منكبًّا على خريطة لميدان المعركة، يشير بإصبعه المسحور إلى نقطـة ضعف قوات العدو! آلاف اللوحـات المنزوعة من المكاتب والإدارات المركزيـة الرسميـة، عدد لا نهائي مـن التماثيل التي أطيح بها من المتنزهات والشوارع، تماثيل نصفية، العديد والعديد مـن التماثيـل النصفية التـي أجبرت بالقـوة على البقـاء هامدة بلا حراك. رؤوس عظيمة كسا جفونهـا وأنوفها التراب، واصطفت تشغل آلاف الهكتارات فـي متاجر ضخمة، ومستودعات مهدمة. أنهكك كل ذلك مع التأثير المتضاعف اللانهائي لنظراتهم المتوهجة وأوضاعهم الشاذة.

تجـول وسـط الغابة بعضـ الأشبـاح المعروفة ما بيـن قواعد التماثيـل الحجرية ومنصاتها، تبدو هذه مقوسة الظهر ترزح تحت وطـأة المديـخ المتملق المداهـن، ودفاعها عن حقيقـة دامغة ذات أهميـة كبيـرة لمثل تجشؤ ذلـك الفلاح الفظ الخشـن الذي تصوره التماثيل. تبث مكبرات الصوت في هذا المستودع المشئوم، دون هوادة، قصائد الشعر والمديخ لـ «دون خوسيه»، و«ماوريثيو»، و«لادولوروسـا»، و«فيديليـو»، وفي الوقت نفسـه تتظاهر تلك الأشبـاح، من دون طائل بالفرار منهم برفرفات متخبطة وتكتسى وجوهها بملامح الإعياء.

Twitter: @ketab_n

(أتحلم؟ أما زلت تحلم؟)

فلول من الحشرات المحتشدة، تصدر جلبة متواصلة، تمزق، تحرق، تهدم، تحطم، تفتت رموز العبقرية لذرات، تحرق وثائق الهوية وبطاقات الأحزاب.

السيارة الـ لادا (أم أنها سيارة DKW العتيقة؟)

تتفادى من خلال حركات ملتوية مجموعة من السائرين نيامًا، فتبدو كأنها ترتفع فوق الطريق السريع الذي تظهر وتختفي خلال عبوره، في الوقت نفسه تُمحى من فوق الأرض كأن الأمر محض سراب.

قالت له: لا تخف. لم نتحرك بعد. حتى اللحظة لم تعتد الوضع. هذا ما جرى لي في البداية، لكن بعد تعود العيش في الظلام والوحدة، خلت أنني ضائعة، وفجأة صرت قوية وهادئة، على الرغم من أنه لم يكن لديّ أيّ أمل في هذه البهجة.

(أنتما في هذه البرجولة أو هذا الممر الريفي المعروش الملاحق للسحاب، بينما تكرر هي وبشكل آلي إشعال سيجارة لا وجود لها، تشعر بهذه المفارقة التاريخية، وتبتسم لك فيما تلوح على وجهها نظرة مرحة خفيفة للتواطؤ الذي جمعكما).

انظر! انظر هذه الموشورات الزجاجية.

Twitter: @ketab_n

ستقدر من خلالها على ملاحظة نعش ضيق قوامه اللهب، قافلة من النساء والرجال العرايا جميعهم، خيطت أجفانهم بأسلاك، شجرة مقلوبة رأسًا على عقب، جذورها ضاربة في السماء فيما تتدلى فروعها صوب الأرض، حية طويلة يوازي طولها مسيرة شهر.

سيدة تحمل مظلة، ترتدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشّى بالدانتيلا والشرائط الكبيرة، تتحلى بعقود من الخرز، ميداليات وأحجار كريمة، جوارب بيضاء، حذاء ذو كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة، كانت تتجول ما بين الدرابزين المكسو بالطحالب، وأصص زهور الأرطنسية.

(من هي؟ ألم ترها قبلاً في مكان ما؟)

على حين غفلة، تدرك أنك فقدت التواصل مع من يختبرونك.

هذا الكشف ينبهك، إلا أنها تعمل على تهدئتك في اللحظة المناسبة بنظرتها المائية الرائقة.

الزمن لا يجري هنا مثلما كان يجري في الماضي؛ لذلك لن تلحظ مرور الساعات أو ما يشابه. فهناك يتحدثون عن الأيام والأشهر والسنين، بينما اللحظة هنا قد تخلد بيننا خلال المساءلة.

Twitter: @ketab_n

الأمر لن يعدو قيامهم بتشغيل الفيديو فيعيدوا للحياة فصولاً ومشاهد من ماضيك.

تختلط رؤيــة الجسر الجوي البــراق الخيالــي بمشاهد الجلبة، الرعب، وصخــب الضوضــاء، والأصــوات الحــادة، وبتساقط مستمر و بطيء لرذاذ مطر ذراته من النيران الملتهبة.

(هل كنت تحيا بينما تحتضر في ليلة الوحدة؟)

Twitter: @ketab_n

-4-

مثل شيطان أعرج وقف ثابتًا عند المنحدر الرأسي للجبل، الذي سيصبح وفقًا للأحاديث، واحدًا من حدائق الجنة، أو سيتسلق مئذنة من المآذن الملاصقة لضريح السيدة التي احترقت بالحب الصافي، تراقب المدى الشاسع الممتد، يضم القباب، المقابر، البيوت، الأركان، الزوايا، المدارس التي جلت بها منذ سنوات مضت، لتآلفها تسرقك رغبة فطرية جامحة لعشقك التجوال. غمر المشهد الآن ضوء القمر، فبدت عليه مسحات الجلال، والسلام والهدوء، بينما القاطنون وسط المدافن في غمار سكون مطلق متشبع بالسكون والبركة. تُرى هل تمثل جزءًا من باقة الأشباح المارقة، كالثريات المستسلمة للذكرى والحنين خلال فترة الأربعينية؟ هل تقرر السفر وتحلق معها من الجامع وشرفات القلعة صوب أديرة الدراويش بالمقطم؟

تفتتين الهواء الصحو المنعش مثل الشهاب أو الطائر، مندهشة بالخفة والرشاقة اللتين تختصين بهما، ترتفعين فوق أفنية مكسوة بالبلاطات الموشاة بالآيات، مقابر شيدت عليها الشواهد، أروقة حزينة بالقيشاني والنقوشات الكوفية. أهي غريزة رقيقة، أم هو الوجود السري لعضو مُنح ملكات التوجيه والتوازن، إلا أنه يسبب لك شعورًا عنيفًا بعدم التوازن، وثمالة منتشية لفرط السرور؟

Twitter: @ketab_n

الطيـران بالقرب مـن المقابر المغطـاة بسعف النخيـل، وأطباق الحبـوب وأوان فخارية تحوي ماءً، يهبك في الوقت ذاته السكون المتوجـس لشخص يتزهد في فضاء مقدس خصص للخلوة الذاتية والحـزن، و وعلـى الرغم مـن ذلك، فإنه مشبـع برحمة غامضة وراسخة.

إنك وحيدة، تسيرين من دون صحبته في جولتك الليلية بالمدينة الصحراويـة. تجـاوزت في مراحـل متتابعة الجفـاف الروحي، الظلمات، الكـرب، المتناقضات، الكرب الدائـم، القلق الداخلي والخـراب المناوئ، كل هـذه المراحل التي حدثـك عنها «الدليل الروحـي». هل أصبحت إيمانًا خالصًـا بلا صورة، بلا شكل، بلا هيئـة، غارقة في عدمك، عائـدة إلى نواتك؟ تـرى لماذا هجرك المحققـان في سرداب حجـري من الجرانيت مسقـوف بقبة، من دون أن يكلفـا نفسيهما مشقة تثبيت حجـر الشاهد الذي يغطي السلم الضيـق شديد الانحـدار؟ هل كان ذلك سهوًا منهمـا، أم فعلاه عن عمـد لا ختبـارك؟ أم ترين أنهما أرادا منحك هدنـة لإقامة الأمور وبعث الذكرى؟

كيـف يتسنى لـك الحديث على بعـد ألفي كيلومتـر، مع مجمع الأشبـاح من طفولتك وعائلتك؟ أم تنتزع عنها الحياة وتتحلل بغتة فـي العدم، أب مفقود استعاد نفسه تدريجيًّا في مكانه المتواضع في

Twitter: @ketab_n

المدينـة، جدود أشرت إليهـم، وقد سلطت عليهـم حزمة ضوئية كاشفـة. قاسية، قبل يـوم البعث المشهـود، مرتبطين في مخيلتك دائمًا ووعيك بمشاهد كنائس تزينها أرباب حجرية، وتماثيل وهمية تكسوها الجروح، عـذراوات يدمين، طقوس باطلة، احتفالات تعميد عقيمة، أحاسيس ميتة. هل ستعود في هذه الآونة لتقلق رفاتهم وتحـرك عظامهم، وتعرض لأطياف لوحـة خربة تصور البؤس الإنساني حقد الأشقاء بعضهم لبعضـ، تلك الثمرة المريرة للبذرة التـي زرعت في الطفولة؟ أهي ذكريـات خائنة للسلام، والحب، وهناء الأمومة، وجميعها كانت تحاصر قرينك أو من صار قرينك عشيـة اليوم الذي هاجـرت فيه روحه؟ ألم تكفـر عن كل ذلك في مقهى صغير بـ «الكاثابا»، ثمنًا زهيدًا دفعتـه مقابل قطعة صغيرة من معجـن؟ وبالرغم من ذلك، تظهر الذكريـات مجددًا، وتبذل قصـارى جهدها لتحقق ظهورها، مثل الصـورة الباهتة في لوحها المعدنـي الرقيق أو لفيلم خلال عمليـة التحميض، ممحوةً بلا شكل في البداية، ثم واضحـةً وجليّةً بعد ذلك ما بين كتلة الأشباح عديمة الشكل، بعد طريق طويل من الجسور المنزلقة والشاقة، والعقبات الضخمة ومنحدرات. وتطوق منـازل التكفير المتوهجة الضاربة للـون الأحمر؛ هي في عنفـوان شبابها، التقطـت لها بحب صورة جانبيـة، أو أخرى بملعب التنس وقد أمسكت بمضربها، وهو مثلما

Twitter: @ketab_n

تتذكره فـي الأوقات الأخيرة، تبدو عليه علامـات السن، حزينا لترملـه، ومرضه وتدهور مشروعاتـه العلمية التي أجهضت على نحو مؤلم.

ألـم يعانيا أحزانًا لا توصف لـدى خروجهما من مينائهما الآمن و إطلالتهمـا الخاطفة علـى بحر العالم، في إجابـة لندائك؟ أهناك عتـاب أبكم في عينيهمـا، أم شكر مفهوم ضمنًـا لرغبتك في حوار أصبح مستحيلاً، بينما يتلاشيان في الضباب عائدين إلى مخدعيهما المتوازييـن في مدفـن العائلة القديـم؟ وها قد حضـرت الجدة في شرودها المحبـب (أترى هل فقدت عقلها بسبب الجذب الروحاني مثلما أشار «ابن عربي»، وهـي شخصية تزن الأمور، لكن بغير عقل، أما زوجها «متقوقع دائمًـا يقرأ جريدة بتاريخ يعود لحصار ستالينجراد» بالرغم من ذلك فإنهما ينضمان إلى الموكب من دون أن يقومـا بتوبيخـك على نبشـ قبريهما، وعرضـ عظامهما على الملأ، وهو ما كان يجب أن يمكث في طي النسيان إلى يوم الرحمة النهائي. تظهر أشباحهم في ليل مدينة الأموات الصافي؛ الأضرحة التذكارية المزينة بالآيات، الشواهـد المكللة بالعمامات الحجرية، القباب المتقنـة، مقامات الدراويشـ، أبراج الحمـام التي تقطنها اليمامـات البيضاء، ضريح (سلطان العاشقيـن) مع المرسي الذي يتلو آيات الكتـاب. تحلق مجردًا في السمـوات الساكنة، تهدهدك

Twitter: @ketab_n

رياح تبدو كأنهـا تحيي بريق النجوم المتوهج، على أرض منزل حقير، بيوت مأهولة، طريق صحراوية ضيقة، أطياف تهيم ليلاً، تنفس ثقيل، واستشعار حياة مليون ساكن لبثوا في مساكنهم شياطين أشقياء مطلوقين، مقابر الشيـوخ، بيوت حديثة الطلاء برسومات الحج إلى مكة، مآذن مرفوعة مثل حراس يحمون النائمين.

(ابتعـدتْ عنـك، ومـن دون إرشادهـا القيم، تشعريـن فجأة بالجفاف وبأنك دون حماية).

وهنـاك بعض النوبيين يرتـدون جلابيبهم البيضـاء، وقد لفوا عمائمهـم بإحـكام على رؤوسهـم بمهارة، ينصبـون بحذر وهمة فـي أحـد الشوارع سرادقًـا سيستقبـل أقارب أحـد الموتى، وبعد ساعات يودعون أربعين يومًا من الحداد، ما بين الزفرات الرهيفة ورشفات الشاي المتباعدة.

Twitter: @ketab_n

-5-

بعكس ما هـو مألوف في الأساطير، لم يكونـا شبحين أسودين لهما منظر منفر مشئوم، أو هيئة مشوهة، وصوت هادر كالرعد، وعيون تلمع في ظلمات المدافن مثل البرق المبهر.

المطرقـة! ألم يضربا بهذه المطرقة الثقيلة التي يعجز عن رفعها البشر كافة؟

إذا كانت موجودة بالفعل، فلم لم يبصرها أحد في أي مكان؟!

ألم يعـان من ضربات هذه المطرقة علـى أم رأسه سبع مرات متتاليات، حين لا تكون الإجابات مرضية؟

جرت الأمور على نحو مختلف تمامًا عما تخيلاه!

ربما لـم يضيقا عليها بالأسئلة التي تخرسـ لسانها، وهي مكبلة بمشاعر الذنب والهلع؟

لا، لا، هذا المشهد لا يشبه - ولو من بعيد - سجون محاكم التفتيش. فلـم يكن هناك أدوات وطـرق للتعذيب مثل الحبـال أو الإغراق في الميـاه، أو الصعق بالكهرباء، أو مغطسـ أو أدوات للوخز، لم يكن هنـاك سوى فضاء ضيق وكئيب، أصبح شاسعًا وبلا نهاية، وتذبذبت الكلمات فيه مثل صفير حاد، يستحيل تحديد مصدره.

كانت تراهما؟

Twitter: @ketab_n

على الأرجح لمحتهما وسط الضباب، وبعد كل اعتراف، كانت تستشعر صفاءً وهدوءًا، بعد أن شفيت من إغمائها وهمومها وقلقها.

صوت نكير كان يتردد، حادًّا وصافيًا في آن واحد، بما لا يدع مجالاً لأي شيء على الرغم من رداءة مكبرات الصوت. بينما جاء صوت منكر تشوبه نبرة لاهية، كأنه مشبع بسخرية أو بمعرفة دقيقة للصغائر الإنسانية. لم يحضرا ليقرآ عليها صحيفتها أو ليخضعاها لاختبار ما.

كانا متابعين لأقوالها وأفعالها، مطلعين على كل شيء من الألف إلي الياء. حتى إنهما شقا على نفسيهما بقراءة أكوام وأكوام من النصوص وأطروحات الدكتوراه صاغها باحثون، بعضها نافذ الفكرة، والبعض الآخر شديد الجهل، ولم يغفلا قراءة النصوص السقيمة لأعدائها. ضحك منكر وقال: يا لها من أكوام لعينة. كيف لنا بعد ذلك أن نتهمها بمعتقدات خاطئة، مارقة، بغيضة، فاضحة، ذات وقع سيئ؟ وسط رتابة الأوقات البائسة الموحدة الغثة الخاوية من أي محتوى، أصبحت حياتها نصًّا مكتوبًا، لكن لديها ميزة ما، ألا هي العاطفة الآثمة، والقدرة المادية على التخيل وأيضًا على الحماقة.

أكان هذا هو كل شيء؟

ماذا بالإمكان أن يقال الآن!

Twitter: @ketab_n

فحينما أنصتـت إليهما، شعرت أن أحدهمـا، بل ربما الاثنين، كان يمدهـا بنيـران ناعمة مصدرهـا شمعة، لهيـب يمنحها منتهى اللـذة، تتراقص ألسنته فـي كل مكان فتحول الانعـزال والصمت اللذين أعقبا مرحلة المرور إلى عذوبة خالصة. وماذا بعد؟

استيقظـتْ، نظرتْ إلى مشهد الفـراغ الشاسع، بدا المشهد كأن مـن يعرض الفيلـم قد أوقفه برغبتـه الشخصية، أو بنـاءً على أمر مـن رئيسه. حينها ظهر «ابن عربي»، وعرفته على الفور لحسنه الفريد الذي يشع منه، حاملاً مخطوطه وعنوانه « رسالة في شجرة الإنسان والطيور الأربعة ». دعاها لكي تتبعه، رآها عاريةً، على أهبة الاستعداد، خفيفةً ونشيطةً.

خلدتْ إلى النوم مجددً ا، وسمعها تهمس في أحلامها:

شربت ميراث الكمال الناصع.

(امتـد بصره عبر الميدان، فضـاء الميدان... نُطفي ومحدد، انغمس في تأمل جلبته وحركة الجماهير، تشكيلات الجماعات التي تتكون وتنحل في ذاك المحيط مثل كيانات شاردة متفككة. ترى ما عدد الأيام والأشهر و السنين التي بقي فيها منغلقًا على ذاته في هذا التأمل، يجيب عن تساؤلات أصدقائه بلا مبالاة، غارقًا في سكون ونشوة مبعثهما صمته الداخلي؟

Twitter: @ketab_n

-6-

«هذا، هـو ما كان»، قالت وهـى تنشطر عـن جسدها الساكن علـى عرض السلـم، تنهض بسعادة مشوبـة بالرضا لتوقف الألم القصيـر بضلعها الأيسر، الأزمة القلبيـة التي أودت بحياة شقيقها، واعتبـر الحدث العقاب الأزلي لعائلتهـا، انفصلت عن نفسها، عن مظهرهـا الشبابي، مرتديـةً ملابسها الرياضيـة، اعتمدت بإحدى يديهـا على درابزين السلـم، كأنها تبحث عن دعـم كيلا تسقط في لحظـة العبور، وقد تكيفت مع خفتهـا، مالكةً غير مرئية لمجموعة مـن الكتب خـلال عدة ساعـات، وللأثاث والذكريـات والصور التـي اشتملت على أرقام في حياتها، مالكـة لعديد من كتب الأدب الإسبانـي كانت بصدد ترجمتها، حتـى إن الآلة الكاتبة ما زال بها ورقة عن الشاعرة «سور خوانا أنس دي لا كروث».

تسببـت وفـاة أخي فـي شعورى بالوحـدة والعزلة، لـم أنجح في اعتياد الوضـع، كنت ألوم نفسي بقسـوة لعجزي عن الحيلولة دون وفاتـه، لكنني لم أنجح في التكهن بذلـك من خلال ذلة لسان أو بعضـ البوادر البسيطة الدالة على المرض إلى أن فارقني على هـذا النحو المباغت فسقطت في بئر حالكـة الظلام، وتحطم كياني الداخلي لجهلـي المطبق عن ذاك الكشف، مـن دون أن ألمحه أو ألحظه وكانَت قد انتهت ليلة الكرب الضيق.

Twitter: @ketab_n

لـم يخالجنـي مثل هـذا الشعور فـي أي من مراحـل الانكسار والجفاء والانعزال عن العالم، الهروب من تبدد الروح، حتى ما بين أسوار مستشفـى الأمراض العقلية، لم أشعر قط بهذا الشعور: عارية، مرفوضة، محطمة، من دون سند وبعد إخفاقاتي العاطفية، بعيـدًا عن ذاك الضـوء البسيط الـذي اعتدت رؤيته فـي عينيك، والرغبـة الملحة في الشراب، والوصول إلى لحظة الإشراق سعيًا نحـو نشوة الثمالة المبتغاة، وصلت بعد ذلـك إلى شقتك، وأنا ثملة بعض الشيء. لم أدرك فـي ذاك الحين أن نشوة النبيذ كانت تعلن عن بحثـي العشوائي عن حالـة النشوة الصافيـة. واكتشفت الأمر بفضلـك أنت، من خـلال الصوفيين وعالمهـم الروحي. عجزت عن الإقلاع عـن التدخين، عن ملء مطفـآت السجائر في منزلك وتعبئـة حجرتك بالدخان، كنت على درايـة أنك تقدم لي الشراب بينما تشعر بحزن، خائفًا، ولديك الحق، في أن يغيب عقلي، وأن أنفصل عن الحياة وجوانبها الاجتماعية.

كنـت أجهل أن أخي قـد سبقني ببساطة إلـى الخفة. غرقت في الألم، شعرت بدوران الهاوية. قلت لك: لا أستطيع مواصلة عملي معـك. ابحث عن شخص آخر أكثر ملاءمة واتزانًا. ذاك المساء، حينما شعرت بمساعدتـك، رأيتك في منامي تمد لي شمعة، تسطع في جميع الأرجاء، نارًا ناعمـة، أتلقاها منك بسعادة، كأنها طعام محلي قوي المذاق.

Twitter: @ketab_n

خـلال الحوار الذي تبادلنـاه، شق عليّ التمييـز بين من يسأل ومن يجيـب، من صوت «يقـول»، ومن صوت «أقـول»، مَنْ يتحـدث بصيغة «هو» ومَـنْ يتحدث بصيغة «هـي». التفريق بين الجنسيـن، ألا تلغي تلك الفروق في إطار هذه الخفة؟ وماذا سنفعل بقواعد النحو؟ لماذا نلجأ إلى ضمير «هو»، وليس «هي»؟

جعلـت تضحك وتضحك من جديد، بينمـا تلهو بالسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصـورة، تطالعك من مشارف السحاب، على مـرأى من الأشباح التي تنتظر بالمثل نهايـة الأربعينية، مطمئنين تملؤهم الثقة في العفو والمرجاء.

Twitter: @ketab_n

-7-

قالت:

أترى جيـدًا؟. إذا كانت الرؤية مشوشــة أو مضطربة بإمكانك ضبطها عن بعد بواسطة الجهاز المبرمج.

في عتمة المقبرة في أعقاب صعودك إلى درجات سلم العري، متجهًا صـوب السلام الميمون، بمنأى عـن خير الزمان والمكان والزمـن، ومن دون أن تلتفت إلى مـا تفعله، من دون أن تدرك هـل أنت مقيد أم لا، أقادر على الحركة والفعل أم لا، من دون أن تلتفت أو تهتم لتعليمات كتاب «الدليل» فيما يتعلق بمواد الإحساس، تستقبـل بسلبية تدفـق الصور القاسية على الشاشــة، ساكنًا في حال تجمع ما بين الهدوء والصمت.

تتأمل المشاهد واحدًا تلو الآخر بالترتيب.

تنظـر إلى رجال ونساء تقطعت شفاههـم عند جوانبها، أصيبت عيونهـم وآذانهم بسهام حادة، علقوا مـن أرجلهم في اتجاه عكسي وتدلت رؤوسهم نحو الأرض، ولدغتهم الأفاعي في كل مكان.

تنظر إلى الجلاد، رجل يرفع بين يديه صخرةً ضخمةً يسحق بها جمجمـة شخص بائس، ومن دون أن يمهله دقيقة واحدة ليرتاح،

Twitter: @ketab_n

يباغـت رأسه بالضرب مرة أخرى بعد أن تتشكل بمعجزة مجددًا، مواصلاً تعذيبه الفظ الصارم.

أمواج نهـر الدماء تغلي ويسبح بها منبـوذاً محروماً من رحمة الله، يجاهد؛ كـي يصل إلى ضفة النهر، حيـث يقف جلاده يقذف بجمـرات ملتهبة في فمه وهـو متقطع الأنفاس، ويأمره بمعاودة السباحة في هذا التيار لمواصلة العذاب.

موقـد أنبوبي الشـكل، يتأجج في نيرانه رجـال ونساء عرايا، يصعدون ويهبطون وسط برادة المعادن المشتعلة، وفجأة يهبطون للقاع، وهكذا دواليك، وسط الصراخ والأنين وصيحات الرعب.

مخلوقـات متورمة، متشنجـة، يتقيؤُون مـن دون توقف من عيونهـم وأنوفهم وأفواههم وآذانهم، ألسنة اللهب الملتوية تخترقهم من الدبر.

محيـط هائل مشتعلـة نيرانه، ينقسـم إلى سبعين بحـرًا، على شاطئ كل منها ترتفع مدينة متوهجة، ضارب لونها إلى البنفسجي، مؤلفـة من سبعين ألف بيت، تضم بدورها سبعين ألف نعش تشتعل بها النيران، يختلط فيها رجال ونساء يتضرعون طلبًا للرحمة فيما تلدغهم الثعابين والعقارب.

أترى هـي صور للوحـات «بوسكـو» أم أنها نسـخ ملونة من

Twitter: @ketab_n

أعمـال «دوري»، كنت تتأملها مرتعبًا وأنت محض طفل صغير؟ ألم يستلهم الفنان الفلورنسـي، بجرأة، رؤى داخلية مستوحاةً من «كتاب المعراج» في أثناء تأليفه كتاب «الكوميديا الإلهية»؟

قالـت: إذا كان الموضـوع يضجـرك أو يشعـرك بالخـوف فبإمكانك تغيير القناة.

إلا أن البرنامـج كلما انتهى يعاد من جديـد، ولا تستطيع معرفة السبـب أهو أمر محتوم بسبب عيب تقني؟ فكلمـا انتهى العرض يبدأ مرة ثانيـة، فتظهر على الشاشة خلال تحـرك الظل الناعم، صور المعذبيـن طالبيـن المغفرة، بشفاههـم المبتورة ومقـلاة أعينهم وقد اخترقتها الأسهم، معلقين من رقابهم، لدغتهم الثعابين في كل مكان.

قالت المرأة حاملة المظلة بالفرنسية:

Oh, Comme ils sont emmerdants! Ils ne peuvent pas s'offrir comme tout le monde une antenne parabolique?[1]

يبـدو كأنهـا اختفت، مـن دون أن تحـاول إشعـال سيجارتها المتخيلـة، أو حتى تستحثك وتمنحك بصيصـ ضوء عينيها الملونة

(1) يا لهم من «مقززين» إنهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم كالجميع طبقًا هوائيًا. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

كملجأ ومـلاذ. انطباعات ما بين العتمة والصفاء، التخمة والرقة، تسبق جميعها اقتحام صور جديـدة لحراس غلاظ، نظرات تطلق ألسنـة لهب، مدن تلتهمهـا نيران داخلية، بيـوت للتطهر والألم، شكلت المشهد رغبة جامحة تهذي في هيئتها المتماثلة.

هوة في شكل خادع أو جزع شجرة صنوبر مقلوبة تنحدر صوب مركـز الأرض؛ من خلال تسعة مستويـات أو طوابق دائرية مثل العقاب والسجـن وفقًا لدرجات الأرواح المنحرفـة الخبيثة، قيود ناريـة ملتحمة بتكتلات الضحايا، أفاعٍ تتسلل إلى الأفواه، وتخرج مـن فتحات الشرج بعد تدمير الأمعـاء، مخلوقات بلا عيون تسبح في أنهـار الكبريت، رجـال بطونهم مكتظة بالزواحـف، ونساء معلقات من شعورهن أو أثدائهن في عقافات ملتهبة كالجمر.

دواب متوحشة لها رؤوس كلاب وأجساد خنازير، يعانون من عطس رهيب، فرض عليهم احتساء أكواب من المعدن المنصهر، ألسنـة قطعت بمقصات متوهجة، تخترقهم سهام وتضربهم أسواط من نـار، أرواح تعتصر وتدمر من قبل مـلاك متمرد يصيح من الألم فوق مرقده على مشواة.

وفجأة وبالتعليـق باللغة الإنجليزية تظهر، صـورة فتاة شقراء ذات ابتسامة ساحرة وصدر مثير وبشرة لامعة كالصدف، تشطف شعرها الغزير تحت ماء الدوش، تبدو عليها سعادة نرجسية غامرة

Twitter: @ketab_n

تـكاد تصل بها إلى ذروة النشوة الجنسيـة، وذلك بفضل الخواص التجميلية التي يوفرها الشامبو، ذو العلامة التجارية العالمية، الذي تستخدمه.

هل قطعوا البرنامج التليفزيوني بهذا الإعلان الدعائي؟

وبينمـا تتساءل، مرتبـكًا، عمـا إذا كانت العلامـات التجارية العالميـة توجد في مقـرك الجديد، تهيأ لك كأنـك تسمع في الظلمة الحالكة ضحكة منكر الساخرة.

Twitter: @ketab_n

-8-

كان فـي مركزهـا، المنـزل والمتعة فـي أحشاء عالـم تنبض فيـه الحياة، يستدعي فـي الوقت نفسه أصواتًـا وروائح وملامح، وعلاقات؛ مـذاق الكبيبة وأوعية حساء الحريـرة، مستوعبًا تمامًا توحد أجزاء جسده وتنوعها، لمساواته الأساسية مع كتلة الأجساد، وأساس هدفه: الانجذاب، الرحمة والرغبة. مجتمع المصير الذي تتولاه في عري الميلاد ولحظة العبور، والعناقيد البشرية بجمالها الأخاذ، والبريق الذي يختفي بغتة.

أكانـت الشيخوخـة أم الإرهـاق هـو ما أبعـده شيئًـا فشيئًا عن منطقـة الأرض المستنفرة، أم ترى أنـه الإيحاء الحزين باستنفاده حيويتـه الأصيلة الصافية في الكتابة؟ الحـق أنه غادر في الحلقات الدائرية ذاتها، ترك بدويتـه الغريزية؛ لكي يقف عند زاوية قرب أحـد المقاهي ليترصد المشهد من هناك. هـل أراد أن يضع مسافة بينـه وبين الآخريـن؟ أم يفرض مسافة تباعد ما بيـن ذاته ونفسه؟ أم أنـه اليقين المفاجئ بعدم ثباته، أيضًـا الوهن الشديد لما يشعر به كأنه شيء قريب، في حين أنـه بعيد وصعب المنال؟ أصبح مجرد شخص يتأمل ما حوله من إعصار الجماهير السائرة، المتدفق بين البائعيـن الجائلين، النصبـات المظللة، المطابـخ المتنقلة، البسط البلاستيكية وعليها البضائع الكثيرة المتنوعة. هل هذه الأجواء التي ألهمتـه شعلتها المضيئـة قُبلاً قدر لها أيضًا الاختفـاء والزوال؟ هل

Twitter: @ketab_n

سيمحي مسرح الأضواء والظلال والكوميديا الخصب الذي طالما غذى روحه وحياته وروحه الإبداعية الشرهة؟ هل سيمحي كل ذلك بلا رحمة؟

تقدم خطوة أخرى، عرج إلى منزله المجاور للميدان، بناظريه من شرفة سطح المنزل، ألقى نظرة فاحصة يتأمل الكتلة البشرية الملتصقة، فما زالت الحياة تنبض، ولم يحل الإفناء والفناء.

يصوب منظاره الموشور على رأس الصاروخ الأملس، وعلى الدائرة المتحلقة حول «الشرقاوي» وحمائمه المستأنسة. ظلال كثيرة تمدها سحب هائمة، تدفعها نسمات رقيقة نحو ظلال أواخر الجوالين، أطفال متقافزون، أطباء ألهموا العلوم الربانية الفطرية، المقرئون يتلون التعزيمات، البصارون، الرواة المنشدون، حواة الثعابين والراقصون المبتسمون. خيط رهيف كان يربط بعالم الأشباح البعيد المهدد من قبل كتلة مضغوطة، سيحجب صوتها تدريجيًا الأصوات المتداخلة، حتى صوت مؤذني الصلاة المنبعث من الجوامع المحيطة بالميدان.

وفي السابع عشر من شهر يناير، تلفح بغطاء ليتقي البرد القارس، الذي تسوقه رياح التلال الثلجية فلمح في محيط بصره صوب المشهد الخالي الصحراوي. وصول العربات الأولى التي تحمل جثث الموتى.

Twitter: @ketab_n

أتت مـن دون دواب تجرها أو حوذييـن يدفعونها، من «باب الفتح»، «سماريـن»، «رياض الزيتون» و«محمد الخامس» في التوقيـت نفسه، كأن جهـاز تحكم عن بعد يقودهـا، أو قوة خارقة تدفعهـا. بـدأ يعدها بالآحـاد ثم العشـرات، بينما تتقابـل في نقطة الوسط؛ لتفرغ حمولتهـا، أكوامًا ضخمة من الأجساد المخلوعة أو المتيبسـة، أفواهًا نصف مفتوحة كأنها ستصـدر صرختها الأخيرة وعيـون جاحظة من شدة الهلع لم تكلـف نفس رحيمة واحدة نفسها تغسيلهـا ولفهـا في أكفانها، تغمضـ أجفانها، تسـد آذانها وفتحات الأنف بالقطن، وأن تربـط الساقين والفكوك بشريط، وأن تشبك الأذرع في وضع معكوس فوق الصدر بشكل جمالي، ولا جعلتهم ناحيـة اليمين بحسب التعاليم الإلهية. شيئًا فشيئًا تحول فضاء الحلقة ومقايضـات البيـع والشراء بيـن المترددين عليها إلـى جمعية من الجثامين، يتزايد عددهم باطراد دقيق وآلية العمل في سلسلة مصنع ضخـم، مثلما هو الوضع فـي أسطورة التعميد. هـل كان الوضع استدغـاءً لـ«المساء والضباب»، محفـورًا للأبد في صور قصيرة متتابعـة لأجسـاد مكبلـة الأيدى، رصاصـات في أسفـل الرأس، صدور اخترقتهـا الرشاشات، ضربات بالسنـج باغتت الظهور، وجـوه شلـت حركتها الغـازات السامـة وقنابل خفضـ الضغط، فحفرت على تلك الوجوه علامات الألم التي يصعب وصفها.

Twitter: @ketab_n

فقط عندئذ تنبه إلى موجات الفيضان الأولى، وهي تتحرك في سكون.

شلال مـن الدماء، كأنه فاض عن مستنقـع أو سد، جعل يتقدم في بطء من الشوارع القريبة مـن بنك «المغرب» ومبنى البريد، كسا الأرض باللون الأحمر، فيما تكومت أهرامات الأجساد لتدفق سيـارات الموتى. تذكـر حينئذ: «من يقدر ولـو بكلمات فضفاضة الحديث عن هذا الكم من الدماء والجراح، وإن حاول بشتى أشكال الحديث؟».

فاضـت ميـاه الشـلال، فغمـرت موقـف السيـارات وشرفة «الجلاسيني» ليصل أعلـى فأعلى. أترى من أي شرايين وأوردة ضخمـة تفيض هذه الدمـاء؟ أهم المعوزون من «بـن سودة»؟ أم متظاهرون فـي شوارع وهـران اخترقت أجسادهـم رصاصات البنـادق؟ أم هـؤلاء المساكيـن المحتقـرون المهانون فـي أحياء القاهـرة الشعبيـة؟، أم شُهـداء صبرا وشاتيـلا؟، أم تلك الأمهات اللائي فاجأهن القصف في بيروت بينما يتبضعن؟ أم الأطفال قاذفو الحجارة في كفر مالك؟ أم هؤلاء القرويون الذين أبيدوا في حلبجة، أم أطفـال متكومون في جحيـم «الشطي»؟ أم أنهـا كانت ببساطة قـاع نهري دجلة والفرات، التي تصـب بعنف في مدينة «الرجال المقدسون السبعة»، فيما تفيض الحدائق والأسواق والطرق؟ نظر

Twitter: @ketab_n

إلى الكتيبة واكتشف على ساريـة العلم المرفوع في إشارة للصلاة قميصًا يتموج ويتأجـج، مشرب بالدماء. أترى أي ملاك غاضب أم رسول للموت وضع هذا العلم هناك؟ من مكانه في برج المراقبة أدرك دون الحاجـة إلـى منظـار معظـم مقدرة الـذروة الخطرة للفيضان، بينما فاضـت مياهه على البازارات المجاورة. لتجرف معها البضائـع والأشياء. فهل غمرت الميـاة فندق «دي فرانس» عـن آخره؟ هل انحرفت ناحية الناصية باتجاه رياض الزيتونة ولا سبيل للحيلولة دون امتدادها؟

سمـع اندفاع المياه الـذي عبر الطريق الضيـق، ورأها تصبغ بالحمـرة مدخل دار سينما «عدن»، كأنهـا قطيع بقر يخور منطلقًا فـي متاهة الشوارع الضيقة المفضية إلى منزله. هذا الصخب الذي يضاهي مثيلـه للمياه الجامحـة المندفعة عند بوابـات السد، جعلت تصعـد متوعـدة بوحشية مـن بين جـدران المساكن. هـل اختفى فجـأة جميع السكان بالمدينة؟ ألم ينتبه شخصـص غيره لهذا الفيضان الدموي؟ هيأ سمعه انتظارًا للصرخات والبكاء، وهباءً حاول رصد علامةً تدل على الحياة. انفجر الشلال والفسقية الصغيرة! ألم يشك أىّ ساكـن في المنزل في المشهد الـذي رأه؟ أسرعوا جميعا، على عجـل، أمسكوا بالخرق والجـرادل وشكلوا سـدًّا ملتحمًا للحيلولة دون صعـود شلال الـدم على السلالم. ألا تـرون أنه على وشك

Twitter: @ketab_n

الدخـول إلـى المكتبة وإغـراق الكتـب؟ حاولوا إنقـاذ المسودات ومخطوطـات هـذا النص، النصوص الصوفيـة الإسلاميـة، المسيحيـة، العبرية، مجلدات «دانتي»، «ابـن عربي»، «الدليل الروحـي»، «كتاب المعـراج»، لا تسمحوا لـه أن يغطي ويمحي تعبيـرات الذكاء والعاطفة الإنسانية، لا تسمحوا بإلغاء سر الكلمات الأساسية. أكان يهمس لنفسه؟ أم أن نفسًا مخيفة كانت تسمعه؟ لكن أصبـح كل شيء أحمر اللـون، بداية من السمـاء الخمرية بسحبها المتكاثفة الأرجوانية، يهطـل مطرها بغزارة؛ فتتفجر قطراته مثل الفاكهة الناضجة فوق العلامات الخطرة التي خطها بنفسه، أوراق المخطوطـات المتبعثرة مـن عمله الذي لم ينتهِ بعـد، بينما غمرته المياه بالكامل.

أمهله الوقت لحظات قصيرة ليطالـع ديوان شعر بين يديه فقرأ «خفف الـوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هـذه الأجساد». قبل أن يغرق فـي دوامة نحو.فيض الدماء، والموتى، وملاك الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات.

Twitter: @ketab_n

-9-

أكان هاجسه بتقدم عمره هو ما دفعه لاستعراض صور الأماكن الأجمل التي عرفها في حياته، يسيطر عليه القلق والحزن لشيخ خرف يهوى جمع التذكارات والتحف، قبل أن تختفي هذه عن نظره بأمر من بارئه؟ أم لعل وهن السنوات الواضح في حركاته غير المؤهلة وتحسسه كالأعمى، عندما رأى في ذاكرته، حين أدار قناة التليفزيون، المدن القديمة التي أحبها، قد تغطت بأكوام الخردة والحفر السوداء، بينما تنبح الكلاب البوليسية للإعلام بحبور؟ ها هي عاصمة هارون الرشيد المحببة العائلية. الأعداء مذعورون مثل الصراصير لحظة إضاءة نور الحجرة، يدهسون في تشتتهم المجنون رعبًا من غضب المهلك.

قرر الهروب من هذه الأجواء غير المحتملة، من ملامح اللوم الصامت للكثير من الوجوه المرتعبة، من الشعور بالذنب الذي ظل يعذبه. بالرغم من كل ذلك، استقل سيارته الصغيرة وانطلق في أقصى سرعة في طريقه للجبال المكسوة بالجليد عبر طريق تتخلله أشجار الصبار واللوز المزهرة. هناك القليل من المارة والقرويين الجالسين القرفصاء، أطفال رعاة مرتعدة فرائصهم من البرد، كأنهم خيالات مآتة، أترى هو الحصي رمى في طريق سيارته المتهالكة الصفراء؟ ماذا سيفكرون بشأنه غير أنه هرع إلى موعده بانضباط في سمراء؟ وصل إلى المدينة الصغيرة بأسوارها الوردية

Twitter: @ketab_n

وأوقف سيارته في الموقف الشاغر. وقف العملاق المهندم مرتديًا سترته وسروالـه المنقوش الأحمـر، يستقبل بحفـاوة - مثلما هو معتـاد - السائحين لحظة نزولهم مـن الحافلة، ولم يقف بمكانه عند البوابـة المفتوحة بين دعامات السور، وغفلت عربات البائعين في الممر المفضي للبهو، ومتاجر الهدايا التي كانت منتعشة قبل تعرض الفنون اليدوية، والبطاقـات البريدية أصبحت بلا حركة أو فائدة. كتـب البيانات في البطاقة التي أعطاه إياها موظف الاستقبال، ولج إلـى الحدائـق المهجورة المتخثـرة لأشجار الخيـزران والموز، والأشجار الغريبة، وتتابع الأفنية المزينة بنوافير صغيرة.

تجمعـات مائية للسلاحف، ومئات الغـرف الشاغرة، والخدم الكسالـى يتحركـون بمكر مثل الأشباح والمـكان برمته ملك لهم. جماعة من القطط الجائعـة، عيونها مثل عيون إبليس، رافقته إلى باب ملجئه.

وبعد ذلك مرت دقائق وساعات، بينما كان مستلقيًا في راحة في الوحدة غير المألوفة بجـوار البركة، استشعر تحت ضغط لا مثيل له سرعة الزمن الغاضب، غضبه الذي يلتهم الأشياء والمخلوقات: رياح الغروب، الحية الشديدة تهـز جزع شجر الكارانداي، تهز فروعها، تعقد وتحل مؤامرات السحاب الشريرة. أوراق أشجار المانجوليـو ولحائها تسقط فوق المياه اللامعـة المتموجة، المقاعد الشاغرة، الديكور التافه لعالم أبيد على حين غرة. ملئ رعبًا لدى

Twitter: @ketab_n

رؤية طاوس ذيله بديع، لكنه يهتز غضبًا. وماذا عن الطيران إلى سيمورج، هل أصبح كابوسًا؟

هرب وهرب مجددًا، إلى أماكن جبلية وعرة، بحثًا عن مخابئ وملاذات خفية، مدركًا أنه لا شيء، وغير قادر على فعل شيء، ولا يساوي أي شيء، تحاصره خيالات كئيبة ذائلة: مشاهد القرى المكدسة إلى جوار الجوامع، قرى مثل أعشاش الصقر، قطعان الأغنام الصغيرة تتداخل مع مشاهد شتاء نووي، أمطار حمضية، غابات متفحمة، مناظر محطمة.

أوقف السيارة عند إحدى التقاطعات، وأخذ يفك طلاسم الكتابة الممحية على اللافتة:

«طريق بلا مخرج»

أيستطيع أن يعود أدراجه للسير خلفًا؟

محيت آثار الطريق خلف ظهره، واشتعلت السيارة المفككة كأنها أصيبت بصاروخ عدو.

وأبصر وسط هذه الجغرافية الخربة شجرة عملاقة، بدا ظلها مثل العطاء والهبة وسط الطرق الضيقة المعتمة والأزواج المشتعلة.

أهي النهاية؟

كانت تنتظره واقفة، وهي غارقة في النقاش مع السيدة ذات المظلة.

Twitter: @ketab_n

-10-

عبـرت أماكن جافة قاحلـة وتحملت مظاهر الخـراب القاسي، وعانـت مـن استشهـاد الأرواح والآلام الباطنيـة التـي ذكرهـا المتصـوف، وبعـد مرورهـا بكل التجـارب، ولدت مجـددًا في رشاقتها ورقتها ونضارتها، ترتفع في فضاء غير محدد، توجد فيه في حالة من انعدام الوزن اللطيف الحالم.

«وبما أننـي لا أستطيـع أن أكون «بياتريث» التـي عرفتها»، قالت ذلك بلهجتها المتواطئة السعيدة، و«إذا أردت أن تزور جهنم سيكون من الأفضل أن تلجـأ إلى خدمات مكتب سفريات. وهناك سيعرضـون عليك كتيباتهـم المصورة، وبهـا برامج الرحلات، وسيضعون تحت تصرفك مضيفة تتحدث عدة لغات».

تضحك مجـددًا، مثـل الأيام الخوالـي، حين كانـت تنتظرك بالقـرب من باب الخروج ثم تذهبان لتواصلا نقاشكما عن شخصية الراهـب «هيتـا» ومسرحية «لا ثيلـستينا» على المقاعد العامـة بـ«واشنطن إسكوير» أو بمقهى قريب من القسم. كانت تدخن مثل عادتها سجائر جاولويزيز الزرقاء.

في لهفة الشاعر ليتعرف إلى أصدقائه وأعدائه في دوائر جهنم، ألـم يدلل ذلك على مرض طفولي ولذة منحرفة؟ ولتضرب مثلا بـ «فيليبو أرجنتي» في النشيد الثامن.

Twitter: @ketab_n

من غير الممكـن وصف بشاعة الألم، بينما رجلنا الطيب، بدلاً من التعزي لمعاناة التعس، يتسلى بتأمله.

تنزلقـان بسرعة، كأنكما في ساحـة للتزلج على الجليد وتجذب هـي من حقيبتها نسخة «الكوميديا الإلهية» التي تحوي ملاحظاتها. ويـا للأسف؛ لأنها لم تدرج في فصولهـا دراسة مقارنة بينها وبين «المعراج» لـ ابـن عربي والتعمق في الحقل الـذي دشنه «ميجيل أسين بالاثيوس».

مفهـوم الرحمة الإلهيـة لخاتم القديسين لا يماثـل بأي شكل من الأشـكال مفهومها عنـد الشاعر الملحمي، وبالمثـل لا يستحق هذه القسـوة والافتقـار للأحاسيس. هـل تتخيل ابن عربـي يكتب هذه الأبيات: «سيدي» قلت، «أتمنى بشدة / قبل أن نترك هذه البحيرة/ رؤية المتهـم يغرق؟» أعرف تمام المعرفـة أن أحدًا لا يقدر على الحكـم على عمل مثل «الكوميديا» في جمالها وتماسكها انطلاقًا من هذه التفاصيل، لكن يجوز الحكم على المؤلف من خلالها.

أنـت الآن داخـل ما يشبـه وكالة للسفـر رفعت عليهـا لافتات للوحات «بوسكو» و«ماء النار» لـ جوستابو دوري. وضعت على العارضـ قائمة أسعار للرحـلات المختلفة والجـولات السياحية. كتب بالفرنسية: «نقـدم لكم أسعارًا استثنائيـة»، تقول المرأة التي تحمـل الشمسية، بينما هي منغمسة بين الهواتـف المتعددة حولها،

Twitter: @ketab_n

«إنه عرض رائع»، وعندما تضع السماعة يجيب الصوت على عدة مكالمات هاتفية في الوقت نفسه: «نعم.. غدًا، أرجوك انتظر قليلاً. حسنًا سأحجز لك الأماكن في لحظة».

وعقب حوارات قصيرة، تتخللها الزفرات والأنين،

لم أعد أستطيع

يجمع الرسائل المرسلة عن طريق الفاكس، ويفحص بسرعة شاشة الكمبيوتر.

تقول الموظفة بالفرنسية بعد أن نظرت أخيرًا لك - معذرة - كلي آذان مصغية.

تلتفت إليها طلبًا للمساعدة، لكن تكتشف أنك وحيد: لقد اختفت.

على ما يبدو أن السيدة المتبرجة، كأن على وجهها قناعًا، مزججة الحواجب، جفناها مصبوغان، ووجنتاها مطليتان، بالمثل وجهها بمسحوق الأرز، بينما شفتاها مصبوغتان بلون قرمزي فاقع فيبدو مثل قلب، أدركت عدم تركيزك فمدت مروحتها بدلال وغواية.

No vous inquietez pas! Une visite pri vee avec un guide vous eclairera advantage[2].

(2) لا تقلق، زيارة خاصة مع الدليل ستوضح لك الأمر بشكل أفضل. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

-11-

تحلم أنك في متحف كبير للتماثيل الشمعية؛ مثل التي رأيتها سابقًا حين زرت باريس ولوس أنجلوس. تعبر خلال ممر مكسو ببساط فخم، وعلى جوانبه علقت لوحات كتب عليها «صديقة الملذات» فضلاً عن رسومات تبرز الجحيم لفنان «الكوميديا». تفتقر المضيفة التي ترشدك إلى ملامح محددة، ولاحظت؛ أنها تتعامل معك بعجرفة واضحة، معرفتها الواسعة تصيبك بالسقم، فتتفحص التماثيل الثابتة فوق القواعد في محاولة لتتعرف وجوه معروفة لديك.

يتلوى أحد الأجساد المرفوعة على خازوق حتى اللحظة، ويبدو أنه يتحمل الألم بثبات وتكسو وجهه ابتسامة متشنجة.

التوضيحات التي تبث عبر مكبر الصوت يصاحبها سيمفونية مؤلفة من ضجيج كور الحداد، وهبات الرياح وأنين الغضب.

وهؤلاء الأشخاص الذين يرتدون الملابس الفخمة، تكسوهم هالة من الحكمة والقداسة، هم المتابعون لـ «ابن تيمية»، و «تور كيمادا» و «منيندث بلايو». لا يعانون من أي عذاب، سواء كان الكبريت المصهور، أو الالتهام المتواصل أو سهام نارية. فعذابهم نافذ وحاد. يتأملون داخل دوائر المجد من أدانوهم بالكفر والزندقة

Twitter: @ketab_n

والانحراف الخائن بسبب ضيق أفقهم: يزون المعلم الأعظم وخاتم الأولياء «ابن عربي»، «الحلاج» «البسطامي» «السهروردي»، وأتباع الشاذلية «المنورين المهجورين»، إلى رفيع المقام «ميجيل دي مولينوس»، إلى «دون خوسيه ماريا بلانكو». فيا لدرسهم الرهيب. اعتبروا فردوسهم أو جنتهم مثل نادٍ مقتصر على طائفة صغيرة و تجاهلوا أن الرحمة الواسعة لله الواحد.

(من الذي يتحدث؟ أهي المضيفة التي ترتدي الزي الموحد أم هو صوتها يتردد لسبب مجهول، بحذر وغموض في ظلمة الظلال؟ وهذه الشخصيات التي تلمحها على الحوائط، هل تشكل أيضًا جزءًا من العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا خفيفًا مثل الذي نبصره في الأحلام؟)

تستدعي بعض الشخصيات المألوفة اهتمامك. تفحصت حين ابتعدت عن الآخرين سيدة تضحك بمفردها، من دون أن تتمكن من التعرف عليها بدقة، كانت كأنها تحتفل بالانتصار في مؤامرة أو مكيدة سرية. وقف إلى يسارها صحفي شعبي منافس لـ ميداس، يحول كل ما تلمسه يداه إلى عمل فلسفي. وهناك أيضًا كائنات صغيرة تتحرك في مكاتب بحجرات أحد المنازل المعتمة مرتدية أقنعة ثعالب البحر.

Twitter: @ketab_n

«هلـم بنا»، قالت عبارتها في لهجة تهكـم لطيفة. لتقل لي الآن إنك لئيم ومهوس مثل دانتي نفسه.

هـل سيهمك بحـق الشيطان أن تجـد واليكريا المـرأة الليتوانية السمينـة مدمنـة الكحول، وهـي تكتب ملاحظتها عـن الكتب التي قرأتهـا في أقبية مملكتهـا المتلاشية المنهارة؟ ألـم تلفق أنت بنفسك إحـدى المخطوطات خلال حياتك؟ (هـذه الشخصيات التي تتأملها وتنتبـه إليهـا مرتبكًا، أهـي تنتمي إلى عالم مرئـي؟ ووجودها في المتحف مجرد عبث أم هـي رمزية وحسب؟ من أدرجهم في متن الظلال؟ أهو خيالك المنتقم أم حيلة حاكها منكر؟)

«هذا الرجل الثرثار الخبير في اللا شيء»، قالت المضيفة وهي تشيـر بإصبعها إلـى الصحفي الشعبي، أتعلم أنه لـن يؤثر في عالم الفكـر أو الروايـة أو المسـرح أو البحث، على الرغـم من إنتاجه الغزيـر الذي بذله في هذه التخصصات. وينطبق عليه المثل القائل «أيها الإسكافي، فلتعتني بأحذيتك».

لكن بما أنه يجهل هذه الحرفة، فلتقل له بطريقة مهذبة:

«أيها الفارس، فلتعتني بأحصنتك».

(أليست الطالبة في الفصل الدراسي التي تغطي بشرتها البثور،

Twitter: @ketab_n

وفمهـا مغلق بنوع من الأغلفـة أو كمامة تطهو فيهـا لعابها النتن، أليست إحدى شخصيات كتبك؟

لماذا تصر السيدة على أن تريك هذه الكتلة العفنة والمحترقة؟)

أترغب في الهرب من المتحف، والتحرر من ثقل هذه الزيارة الموجهة، لكنها تتوسل إليك ألا توقظ المضيفة بحركات أو إيماءات غير حكيمة.

تقول: تحلي بالصبر، ألا ترين أننا كائنان في حلم؟

عبثـا تبحثان فـي هذه الأجـواء والممرات المكسـوة بالسجاد، واللوحات على الجدران، عن أية لافتة تشير إلى الخروج

EXIT، AUSGANG, SORTIE, USCITA.

سيغلفكمـا الظـلام الكثيـف المصمت فـي المدفـن القبوي حين تهبطان إلى وحدة الظلال في محيط مدينة الأموات.

Twitter: @ketab_n

-12-

أتـرى هو توقع أم مجرد حدس واعد، أم الوله الشديد للطهارة الشعائريـة، أم الذاكرة أم بريق اللقـاءات السابقة؟ لست على يقين محـدد، ربمـا كان الأمر مزيجًـا من كل هذا، مـا يدفع بخطواتك إلى هذا الصراط المضاء بشعـاع رقيق من أشعة الشمس، صوب الحمام المجـاور لجامع الحي. إنها ساعـات الحرب الفاصلة، من دون أدنـى أمل فـي الاتفـاق أو الهدنة، حين ترقـد آلاف الجثث المتكلسـة بفعل سيل النيران، ترقد تحت سحب سوداء كثيفة في ليل مزيـف كبريتي متشبع بالأبخرة الثقيلة. هل أنت بحاجة لتغتسل من أثر غثيان معنوي أصابك؟ وأن تزيح عن كاهلك لبرهة هذه الهوية المسببة للشقاء؟ أن تغوص فـي مملكة معتمة غير محددة. سيكفيك أن تعبر هذه البوابة التـي تقسم ما بين الضوء والضباب، أن تخلع ملابسك فـوق دكة خشبيـة وضيعة، وتأمن وضـع ملابسك لدى حارسـ النفوس المتطهـرة، وعند موضع قدميه جلسـ متقرفصًا شـاب هزيل يدخـن الكيف، متدثـرًا بجلبابه الـرث معتمرًا عمامة عفريت.

هل أنت في جهنم السفلى حيث المقر الذي ترشح فيه الظلال؟ أم هو البرزخ أو العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا رقيقًا

Twitter: @ketab_n

وفقًا لكلمات أشرف الأولياء؟ يمحو الضباب والحدود، ويظلل المشاهد، يضفي هالة قوامها الخطر المداهم فوق الممر وأرض الزلقة، ما بين الأشباح التي تتحرك بحذر، والأخيلة المنهكة تبدو مختلفة الأعضاء والأطراف. هل ستتقرب إليهم بدلو إلى حوض القاع؟ بينما لم تعتد عيناك بعد الضباب، ولا يكاد يضيء سوى بصيص من الضوء الخافت، مصدره النوافذ الصغيرة، تبحث متلمسًا ركنًا تمد جسدك فيه ما بين كائنات أخرى منهكة ومتهالكة قوامها الحلم نفسه. هل يأتون أيضًا لغسل رعبهم من هول المذبحة، ومن الهواء الجاف المدمر، من الإعصار الغامض والعاصفة المشتعلة، من الصخور النارية المنبعثة من الآبار، وعمليات القصف التي ترزح الأرض تحتها فترتعش وتخور؟ يلتهم البخار أشكالهم الهلامية. البعض منهم يتحرك ببطء. تنوء ظهورهم بالحمل في انتظار الغسل المطهر الذي سيبعثهم من جديد. والبعض الآخر ساكن بغير حراك وكأنهم مصفوفون في مستودع للجثث، وهم غارقون في الحلم أو الإغماءة. وسط هذه الكتلة المبهمة عديمة الملامح ستكتشف في ارتياح وجود شاب طويل بهي الطلة، صدره مفتول، عضلاته بارزة عروقه نافرة رشيقة. تضيء وجهه ابتسامة بيضاء ناصعة تبرز شاربًا أسودَ رفيعًا. بدا جلده لامعًا بنور فسفوري رقيق وبينما كان يتحرك

Twitter: @ketab_n

بخفـة بين النفوس المنهكة المريضة، لاحظ أنه يخترقها بسلام مثل شعاع الشمس للأجسام الشفافة.

المـلاك – نعم لقد تعرفت إليه علـى الفور – كان يحمل في همة ونشـاط الدِلاء، يمـر ما بين الزبائن كأنها خيـالات واهنة تتحرك تجاهـك، لينصـب معهم منطقة محـددة تفصلهم عـن الباقين فوق ألواح المرمر الساخن الرطبـة. ألم يعش ابن عربي تجربة مماثلة خلال طوافه بالكعبة. خلال ذهابه وإيابه إلى الحوض، ستتنبه إلى أنـه يغطي أعضاءه بحشمة مرتديًا رداءً صغيرًا، ويبقى غير مرئي لبقية المجموعة. لا أحد غيرك قـادر على رؤيته، وليس بإمكانك توجيـه التحية له، تخمن أنه نكيـر نفسه. وحين تحجبك دِلاء المياه عـن أنظار الآخريـن، ستشعر أنه جالس إلـى جوارك ويدعوك لتوليه ظهـرك. منبطحًا على بطنك فـوق الأرض التي لمعت قبل قليـل، ستترك نفسك ليغسل جسدك ويدلـكك، بلا حراك بين يديه النقيتيـن الصلبتيـن، سلبيًا مثل ميت في رحلـة التطهر. هل حانت لحظة هجرة الروح لتعيش بعد ذلك اللحظة الجليلة للغسل الطقسي؟ هل سيسبل عينيـك، ويسد أذنيك، وفتحتي الأنف بالقطن، ويربط قدميـك ويديك فـوق صدرك ثم يميـل جسدك إلـى اليمين صوب الكعبـة؟ يفرك نكيـر جسدك بطاقة كبيرة، يتحسسـه ويحدد أماكن الشـد والعضلات، يخضعك لوقفات ودرجـات منهجية ومحسوبة

Twitter: @ketab_n

للتعذيب. تتحول إلى مجرد مستقبِل لأحاسيس الألم القاسية المتدرجة، لن تتمكن من إصدار أية شكوى.

تصدر عنه أصوات وصفير غريب ونبرات حلقية وأنفاس متوحشة، بينما يرقد بكامل جسده فوق ظهرك المنهك. ساكنًا مثل المكمم تتابع فقرات تعذيبك: يداه الوحشيتان تتشبثان بكتفيك، تجبرانك على ثني ساقيك وذراعيك، تضغطان على عمودك الفقري فتجعلانه ينثني وفقًا لإيقاع شهقات ليست بشرية. تجد نفسك منسحقًا تمامًا تحت ثقله وتعجز حتى عن التنفس. ماذا يرغب في فعله معك؟ هل يرغب في فصل أجزاء جسدك وشل حركتك من الحزن والرعب، وقتل أعضائك المذنبة لأقصى درجة؟. بالرغم من أنه أبقى وجهك لصيق الأرض ليعمي بصرك عن كل رؤية، فتسجل المشهد غير المتوقع كأن روحك تضاعفت وأصبح بإمكانها أن تتطلع إلى نفسها من الخارج: كأن الملاك طائر جارح تهزه ارتعاشات السفاد، كان يهز جناحيه بعنف، ويدس مخالبه في ظهرك، وينقر جمجمتك بمنقاره. أكان هذا من محض خيالك أم هو متوقع؟ المعاناة غير محتملة وعبثًا تتضرع إليه «خليني، بلاتي» فلا يزيده ذلك إلا غضبًا. كنت تحت رحمة رغبته المدمرة بينما قلبك ينتفض من الرعب.

ما الجريمة أو اللعنة الإلهية التي تكفر عنها؟ على الرغم من صراخك بكل قوة، سيكون الوقت قد تأخر: على الفور ستعاني

Twitter: @ketab_n

من الضغط المؤلم غير المحتمل على قفصك الصدري والدق على ضلوعك. يغطي لهاث الكير للملاك على صوت يخيبك ولا يبدو أن هناك أحدًا في هذا الجحيم مهتم بالتدمير القاسي. شدة عناقه لك تكسر عظامك النحيلة، فتتكسر كأنك دمية بلاستيكية، يحطم هيئتك التعسة. هل سيشرع في تفتيت أعضائك فيعاد خلقه بالتهامها؟ فقط عندئذ ستدرك بمرارة الشرك الذي سقطت فيه. جمال الشاب . . ألم يكن ذلك مجرد طعم استدرجك به من يختبرك؟ ذلك النور الغامض الذي أحاطت به علامة واضحة أم حجاب يداري به غرضه في الإغواء؟ وكيف يمكن تفسير ضغطه القوي الخلفي، ولهاثه الحيواني ولذته المتقطعة؟

حين تستيقظ، ستجد جسدك قد عاد إلى حاله السابقة، لكنه مشبع بالعرق.

Twitter: @ketab_n

-13-

لماذا دانتي؟

حتـى إن اعترفنا بـدوره الرائد في تأسيس اللغـة وقوة أشعاره المترعـة، ومفهومه الهندسي البارد للآخرة، ألا يصطدم كل ذلك بمبادئ عصرنا ومشاعره؟ الوحشية الجامدة لوصفه، التي لا تقدر تعبيرات الشفقة العارضة على التخفيف من أثرها.

أتـرى هـل تتوافق هـذه التعبيرات مـع المثل العليـا كالتسامح والشفقة التي تهدينا؟

كانت تجلس قبالته، على الطـرف الآخر من المائدة المستطيلة المنخفضة المثقلة بالكتب، فيما استعاضت – كما هي عادتها – بمدق نحاسـي صغيـر يصنع به هو أدواتـه من أقلام وممحـاة وبرايات للأقـلام ودبابيـس. كانت تدخن وتدخـن، أحقًا تدخـن سجائرها «الجاولوسيـس البلو» وفتحـت برقتها المعهودة المـزلاج لتهوية الحجرة. أمالت الرأس بخفة، كان بالإمكان مجددًا رؤية الأسقف، النوافـذ الصغيرة، المداخن، هوائيات التليفزيونات، وقبة الأوبرا المائلـة للاخضرار، وتلك الأطياف البعيدة التي تنعكس مع بنايات حـي «ديفنسي». أم أن المشهد كان محضـن لوحة رسمت بمهارة

Twitter: @ketab_n

وبكل التفاصيـل الدقيقة، وبهدف أن توحى بـأن كل شيء يجري كما كان عليه في السابق؟

«تأمل ألـوان السحب!» قالت بينما تقرأ ما يجـول بأفكاره أحقًا تبدو غير حقيقية؟.

لكن هذا الضبـاب الغائم للمدينة، وحركة الأتراك خلف النوافذ وهم في المحلات يصنعون الحلوى، وهديل الحمائم فوق الأسطح الرمادية، كيـف يمكن تفسير كل ذلك؟. لقد جـاءت لكي تعيد إليه ملاحظاتـه المكتوبة عن «دانتي»، وبقيـت غارقة في تأملها للوحة المدينـة أمامها، كأنهـا تحاول أن تركب محضـن صورة للمكان، ربمـا لتؤكد أنها عادت مـرة أخرى. تراتبـت الأسئلة في ضميره الباطن وهو يراها مشرقة، مستقلـة، رائعة، تصعد السلم بسلام، شاخصة للهدف وفقًا لـ «الدليل» لدرجة معرفتها.

نعم، لكن لمـاذا؟ هل تبني الإيمان بالآخـرة بحسب النصوص الأولى المبدئية لكتاب «المعـراج»، هل سيطرح تقدمًا في طريق الإنسـان الطويل نحو السـلام والتناغم؟ لماذا هـذا الإصرار على الغضـب والعقاب بدلاً مـن الصفح والرأفة؟ ألـم يكن من الأفضل التعلق بالصوفيين ونبذ اللعنات الغاضبة؟

كان على وشك أخذ المفاتيح والذهاب ليعد لها فنجانًا من القهوة،

Twitter: @ketab_n

لكنــه تراجع على الفور عن الفكرة. كيف له أن يعبر الممر ليشرح لزوجته عودته مــن الظلال من غير أن تجفل من الفزع والعاطفة علــى حد سواء؟ ألــم تكن قد عانت كثيــرًا بالفعل من حبــه القصير المتحفظ ليأتي ويفرض عليها لقاءً مباغتًا بعد غيابه النهائي؟ استحالة عبــوره لعتبة الباب شلت حركته تمامًــا. الفضاء الواهي الذي كان يتحرك فيه اقتصر على حدود حجرته الداخلية.

Twitter: @ketab_n

-14-

كل فـرد يدرك مستوى معرفته بإدراك الضرورة: يهرع إليها وإليهـا يسكن، مثل الطفل لصدر أمه، ومثـل الحديد للمغناطيس. وإذا ما حاول أن يهرع لقدر آخر فلن يفلح.

وبالرغـم من محاولته تحقيـق هدف آخر فلـن يتمكن حتى من مجرد الرغبة في ذلك، لن يحقق هذه الأمنية.

قبل ذلـك كان الأمر مختلفًـا تمامًا: فكل مُختـار يجد في تحقيق وجوده غايته والعوض عن آماله وتطلعاته.

يهجران قراءة «ابن عربي» ويتأملان في شاشة، مشهدًا قصيرًا للسموات السبع، والأراضي السبع، طوابق جهنم السبع، ودوائر الجنة، والحجـب المتعددة، الأنوار والبحـور والجبال، تتلاحق المشاهد ويعلق عليها صوت يقول:

هذه هـي الحديقـة، مزروعة بأشجـار ضخمة سامقـة، وافرة الثمرات، يستظل بظلها هؤلاء الذين نالوا العفو عن ذنوبهم وعبروا طريـق التطهر. أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، دون توقف، تطهر وتسكـن بجريانها قلوب هـؤلاء الشعـراء الساكنين بها؛ وقد تعافوا من مشاعر الغيرة والحسد التي سممت وجودهم، ينعم الأدباء هنا بسلام روحي غير مألوف هناك، وصداقة وأخوة حميمة.

Twitter: @ketab_n

لو أنني أخبرك بحق فـإن هذه الدرجة ليست ملائمةً لك، قالت ذلك بينما تضغط زر الجهاز عن بعد. لا أتخيلك في واحدة من هذه الندوات الساخنة للشعـراء، أو الروائيين أو النقاد، أو علماء اللغة والنحـاة، الذين طالما حازوا علـى إعجاب مواطني بلادك، حين يتناقشون فيما بينهم في قضايا أدبية تستغرق دهورًا ولا تنقضي. أية عقوبـة قاسية تلك التي ترغمك على المعاناة في صحبة الأكاديميين وخدم السلطـة، والشخصيات الجوفاء المتشحيـن بالأوسمة، كل هـذه الشرذمة من شعراء مدرسة كفافيس، ربات الفن المفوهات، والمتغطرسيـن المنتفخيـن بثقة النفـس الزائفـة، واللائي اعتدت الفرار منهن يحدوك الرعب.

لا أنكـر أنه علـى الرغم من احتقارك لطبقـة الكتاب متوسطي القامة، فإنك ارتبطت بعلاقات صداقة بمجموعة محدودة، يضاهي حكمهـم الأدبي، في كتاباتك، ويفوق جميـع المقالات التي نوهت بأعمالـك على مستوى العالم. لاشـك في أن غياب البعض، الذين انقطعت عن رؤيتهم لعهد بعيد امتد لسنوات إثر ابتعادك عن الأشياء الدنيوية، جعلك تشعر بالإحباط والحنين، نعم أعلم ذلك.

ألـم تر خايمي في المنام تحرسـه فتاة مذهلة الجمال ترتدي جلد النمر بينما يرتقي هو سلم «جراند أوتيل» أو «بلازو» وعندما لاقاك احتضنك وحياك دون أدنى شعور بالضغينة، وملامحه الدقيقة إثر

Twitter: @ketab_n

المرضـــ الذي فتك به، وهذه الطلة الشبابية، التي يحتفظ بها كطفل نشأ فـــي رغد، طالما سببت لك ضيقًا؟ و« مانويل» و«رينادلدو»، ألـــم يهرعـــا إلى جلساتـــك الليلية إلـــى الدرجة التي رغبـــت فيها أن «تعزم» عليها في ليالي شهر شعبان وطقوس النشوة المصاحبة؟. ثم حجتك إلى قبر «الشاعر» المدفون في الأحراش، وهذا الشعور بالسكون والأمـــان يناله من يزور وليا. ومعرفتـــك المسبقة بأنك سوف تلتقي بمريدين آخرين مجذوبين لبركة قداسته . . بالطبع هى استثنـــاءات، لنفورك من جلسات النقاش في المقهى أو التلفزيون، ولجثوم هـــذه الطيور المروضة في الجزء الآخر من الأرض التي تمثلـــت في أرواح طيور أخـــرى، وفقًا لكتابـــي، تحلق بحرية في روضـــة الجنة، وتقف على فروع الأشجـــار، تقتات من ثمارها، وتشرب من مياه أنهارها وتتحدث مع الرب.

Twitter: @ketab_n

-15-

ترى أية درجة ستحتل في حفلة النفوس الكونية؟

وبعد ارتحال هائم بين السحاب، تعترضه من حين إلى آخر حركة الطائرات في شكل أفقي أو حدة مخلوقات ملائكية مختلفة أشكالها.

(أهم ملائكة، أم رؤساء الملائكة، أم سيرافيم، أم ملائكة آخرون، أم هى عروس، أم صفوف الملائكة، أسماء وردت في تصنيف كتاب التلقين الشفهي الذي درسته بالمدرسة؟)

وقد تعرض للخطر ارتحال الأرواح الهائمة في قائمة الانتظار، حرة فضفاضة مثل الطيور الصغيرة في البرزخ.

(ترى أيعود اكتظاظ حركة السير لإضراب نظمه المراقبون لهذه المملكة، بحسب افتراضها، أم هو العدد الهائل لتلك الكائنات السماوية. التي تتدفق وتتخبط في لحظات الذروة؟

اصطفت جميعًا عاليًا، ومن هناك تبدو الأرض كأنها حلقة صغيرة بين أخرى، من تلك التي تشكل بعدًا مفقودًا وسط سهول مترامية أبعادها بلا حدود.

نساء ورجال ذوو محيا أبيض ناصع جميل، تزينوا بملابس تضوع منها روائح طيبة، ينزلقون برقة في حركات ذات وقع

Twitter: @ketab_n

منتظـم، من دون الالتفـات إلى معرضـ السيدة صاحبـة المظلة التي تـروج لقدراتها في التنبؤ إلى جوارهـا لائحة إعلان تومض بحروف مضيئة: تلفزيون الرؤية.

استلقيـا علـى أريكـة، إلى جـوار مكتبها المغطى بـالأوراق والحواسيـب الآلية والتليفونات. وبعـد أن طلبت إليه السيدة جميع المعلومـات الضرورية، وضعتهـا بالكامل في ماكينـة، مثل تلك الموجـودة في صـالات ألعاب القمـار، ثم انتظـرت إجابة جهاز «الفلاش الفلكـي»، بينما تحرك مروحتها. وأخذت تطوي شريط الأوراق الصادرة عن الجهاز ورقة ورقة عند خط القطع، لتجمع بذلـك كتـاب حياته. مرت لحظـات طويلة تبـادلا خلالها نظرات التواطـؤ والدعـم، محـاولاً أن يكشف فـي تعبيـرات السيدة عن مضمون الحكم.

قالت في النهاية: حياتك ليست نموذجية كما ينبغي. أليس كذلك؟

أخـذت تتصفـح الأوراق المنثنيـة مـن دون أن تمعـن النظر بإحداها، دل ما كانت تقرأه على علامات طيبة بحسب ما وشوشت إليه الأخرى في أذنيه.

أعلم أنـك تحب زوجتك، لكـن حياتك معها لم تكـن دائمًا مثل فراش مكسو بالورود. هل تفهمني؟ أما علاقتك بأشقائك وشقيقاتك فهي تعيسة لأقصى درجة. وفيمـا يخص كتاباتك فلنغض الطرف

Twitter: @ketab_n

عنهـا رحمة بـك. فأنت نفسك قـد اعترفـت! «to be dead to decency»، حسنًا.. حسنًا، أعرف المقطوعة القديمة عن الصدق والاعتراف كأنك على شفا قبـر مفتوح. محض ترهات وألاعيب ساذجة لاصطياد السذج. ماذا تريـد أن أقول لك؟ فبطاقتك الفلكية لا توصف بأنها مضيئة.

أترى هل كانت كلماتها علميـة ذات سند؟ نصف بين السحاب، ونصف قرب الجبل، انسحبا بروحيهما الخفيفتين المذهولتين، ولم يعلم، هل سيحترق يوم الحساب أم سيدخل في الفضاءات السماوية يضيئها الإدراك الأعلى؟.

Twitter: @ketab_n

-16-

يتلمس طريقه بين ضباب «الحاما»، يمرق خوفًا من ملاك يغويه، وتعذيب غادر، تنفذ فجأة إلى لوحة رائعة الجمال:- وفى حلم بطىء، ينعم بصرك بمرأى عشرات من الرجال الأشداء، فرادى أو في جماعات، مظهرهم وحشي، أياديهم متشابكة كأنهم يوقعون عهد سلام. يبدون كمن يحملون الأثقال، عضلاتهم بارزة، وأذرعهم تطوق خواصرهم، ودروعهم على صدورهم المفتولة، سراويلهم الجلدية تتوهج، باطن قدمهم راسخ في الأرض. أجسادهم الصلبة، هيأتهم الجسور، ومظهرهم دليل على شدة إيمانهم، وتدريبهم الموسيقي والرياضي، وأيضًا تجربتهم وتكوينهم الروحي العميق. عند القفز والدوران حول الحفرة التي يعملون فيها، يقبلون باطن أصابع كفوفهم اليمنى، ثم يتلمسون الأرض بها كناية عن التواضع، يقبضون على الأقراص بمحاذاة الحفرة ويضعونها عند أقدامهم، يتحلقون حول المرشد. ينبطحون على بطونهم، مباعدين ما بين سيقانهم لأقصى درجة، أذرعهم مفتوحة عن آخرها لتلامس أطراف الألواح، يقومون بسلسلة من الانثناءات، يرفعون جذوعهم ويشدون عضلاتهم، بينما تتموج أجسادهم تحاكي موجات المد والجزر، تلك الموجات

Twitter: @ketab_n

الناعمة لتيارات البحور. يحفزهم المرشد بحركات لولبية فيما يحصي انقباضات أجسادهم الحلزونية يتضرعون ويبتهلون المدد من «علي» والأئمة القديسين. فقط عندئذ تكتشف مقعد «المعلم»، المتواري في العتمة الخارجية لحزم الضوء الخافتة التي تقترب من الحفرة، حفرة المسرات: متكئًا على منبره، في حجرة الطبل، يضبط الإيقاع بشكل عجيب بكلتا يديه، يعدله وفقًا لمتطلبات الإنشاد، يحدد بداية ونهاية التدريب، ثم يدق الجرس بدقة وحيوية منقطعة النظير. موهبته الفذة تدفع وتحفز قوة الأبطال الرياضيين التواقين لسماع حكاياته الملحمية، الصلوات على الرسول والقصائد الصوفية الرقيقة. أهي أحلام لازلت تحلمها؟ وماذا عن العمالقة المسلحين بمطرقات خشبية مستطيلة ضخمة تستند على فجوات أكتافهم وكأنهم مجندون يتدربون، أترى ينتظرون منك إشارة البدء؟

رؤياك عندما كنت تراهم يحركونها بشكل متناغم، ويقطعون بها دوائر كاملة بمحاذاة عظم أكتافهم وصدورهم. أهي حقيقة؟ المشهد المهيب لحاملي الصولجانات الذين أضحوا أبطالاً في لعبة ورق مترفة، أيعكس كل هذا مشهدًا ماديًّا محددًا، أم هو محض خيال مبهر بفعل تعرية وضعه الشائك المهتز؟ وماذا بشأن ملوك الهروات الرائعين، ذوي الأذرع المقوسة والأوتار الحديدية،

Twitter: @ketab_n

أتـرى انبثقـوا عن عالم سري بـراق ، مثل شخوصـ حلم مباغتة تجسـدت في بهاء؟ نشوة وانخطاف وبهجة وغبطة: الوعي بأنك قد ارتقيـت درجتك ، حظك من العظمة والمتعة الباطنة دون أن تقدر روحك على فرصة الحصول عما هو أفضل. ألم يقل «ابن عربي» إنـه إذا لم تمضِ الأمور على هذا النحو ، فلـن تصبح السماء مقرًّا للسعادة والغبطة ، بل مقامًا للألم وخيبة الأمل اللاذعة. وحين تمعن النظر تتأمـل عمق الحفرة واستدارتها الكاملـة ، الشفرة والصوت لثنائيـة الثواب والعقاب لديك. وهؤلاء الجوالون يطوفون بملاحة ورشاقـة مثل اعتـدال عرناس المغزل ، تنمحـي أطيافهم الصليبية كأنها دوامات أو دوران المراوح.

تـرى هل حظـوا بنعمة حساسيـة اللمس والاتسـاق؟ ، ويا لهذا الإيحـاء أو هـذا الشكل الخرافي الـذي يعكسه هـؤلاء الرياضيون الذين يرتعشون من إخمص أقدامهم إلى أطراف رؤوسهم ، كأنهم شجيرات واهية تحركها نسمات أو السطح المترجرج الهزاز لسائل ما تداعبه ريـاح ناعمة؟ وحين يرفعون أذرعهـم تتلوى أجسادهم مثل هيئة ألسنـة اللهب في فضاء سحري دائـري ، أما زلت منتميًا إلى عالم الأجساد أم ترى أنك تعيش لحظة تبصر ، وأنك انطلقت للأبـد بعيدًا عن المخلوقات والحيل وبالأخص الحساسية المفرطة. مجذوبًا صـوب الحفرة المضـاءة بنور صاف طاعـن يصدر عن

Twitter: @ketab_n

مصابيـح، تعجب، وسيزداد إعجابك بهـؤلاء الأبطال يستكشفون بحماسـة متانـة أجسادهـم وصلابتها. يشتبـك كل منهـم بأعضاء غريمه، ويفلت من ذراعه بسرعة وخفة، ويغني المعلم:

إنها عذبة مثل قيود العشق،

هذه المبارزة.. صراعاتها ومغانمها

مجابهة الخصم وفقًا للأحكام

إنها البهجة الصافية.

لكنـك تلتهب، تلتهب مثلهـم، ملفوفًا في تـاج اللهيب، تلتهب، تحتـرق، وتتلاشى مـن قدميك لرأسك، مثل كائـن ناري خاضع لحلقة المخصصين لنيران الانقاد، ضحايا طيعون لعاطفتهم وعنف جبلتهـم. يدهشك اختفاء الألـم، وبطوافك حول حفـرة الشفافية، لأجـل ما فزت به مـن تجل إلهـي، ستنال المعرفـة وأنت رهيف رقيـق، ستدرك انقشـاع الألم المتأصـل للعقـاب وبالمثل ذاتيتك الفردية.

Twitter: @ketab_n

-17-

أو كان في رؤية درجته أي إرباك لكينونته، أو تأليه للمخلوق، أو تجسيد للمتعال؟

أجاب: لاشيء من هذا. يرى «ابن عربي» أن تضاعف الأشكال ما هو إلا إيماءة تكوين معقدة للحاضر بعينه. وما المادة، الأشخاص، الأحداث، الظواهر الطبيعية والأعمال الفنية إلا علامات لهذا الوجود الحاضر.

وهكذا فالثراء اللا نهائي وتنوع العالم بالإمكان أن يتلخصا في مشاهد مثل تلك التي وصفتها، وفيها الجمال المشع للجسد، وما هو إلا اتحاد، خطوب ونشوة، برهانًا على أن الأنا والآخر ينصهران في واحد.

وضعت الكتاب فوق الطاولة وشرعت تضحك. ذوت سيجارتها في المطفأة، عند طرف المائدة المغطاة بالمجلات، وعندما انتبهت أطفأتها بعناية، وحركت الهواء بيديها لتطرد الدخان.

وكما هو واضح، فقد تعلّمتْ درسها كأفضل ما يكون. تحول البحث عن هامش في ذيل صفحة في دراسة عن عالم الآخرة في الديانتين المسيحية والإسلامية في الأعمال السابقة لـ «ميجيل أسين

Twitter: @ketab_n

بالاثيوس»، إلى تربة خصبة لعالم ملغز رائع، محيط شاسع بلا ضفاف. هل تذكر العبارة التي وردت في«The Crack-Up» التي ذكرها في المحاضرة خلال أحد الفصول الدراسية التي ألقاها في نيويورك: ومفادها أن الدليل على الذكاء الحاد يكمن في قدرته على التركيز في فكرتين متناقضتين، من دون فقد القدرة على أداء العمليات الذهنية؟ ألم يكن كذلك؟ أثارت الفقرة دهشتها، فسجلتها لتحفر في ذاكرتها، ذلك أن «ابن عربي» هو الدليل المقنع لهذه العلامة أو قل هذا الطابع.

فجملة أعماله، أي الفضاء النصي لأعماله، ما هو إلا مقدمة أو ميدان تتقارب فيه الأضداد، وتذوب فيه العداءات، يتصالح فيه المعتم والمضيء والفاني والباقي، كل في انسجام. يقودنا حيث يريد من خلال ومضات مشرقة أو تجليات، العالم بأسره المؤمن والكافر منه يعظم الرب.

اسمح لي أن أقرأ لك هذه الفقرة: « إذا نظرنا، فلا ننظر إلا له، إذا سمعنا فلا نستمع إلا إليه. يتجلى في كل محيا، ولا تنظر العين إلى سواه، هو المعبود في المعبود قاطبة». قد تراني أجترئ، ولكن هاك قراءتي: الهوة الدائرية . . غاية ومنتهى لآمالك، هو استجلاء حضوره وولوجوك الدائرة هو فعل الخضوع.

Twitter: @ketab_n

كانت تتحدث في عجلة، في حماسة، دفعت بالدم إلى وجنتيها، وأبرز ملامحها الوضاءة. ومن النافذة المواربة (هل كان صيفًا؟)، جعلا ينظران بإعجاب إلى لونِ الأسطح الرمادي الباهت، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة إلى الاصفرار، وناطحات السحاب دقيقة الحجم في حي «لا ديفنس»، وخيال «مون فاليرين» الكائن هناك. هذه التفاصيل الدقيقة وتلقائية حديثها زادت حيرته.

بادرته تسبق اعتراضه: فلتنسَ «دانتي» ونصوص المعراج البدائية، أم عساك تفضل أن نرجع إلى وكالة «السيدة ذات المظلة» ونقوم بجولة مصحوبة بتعليق في «الميدان الثالث»؟ أم تفضل مشاهدة عرض فيديو لحكايات «بوش» ولوحات «دوري» المحفورة؟.

عندما يزج الشاعر بمعلمه «برونيتو لاتينو» في دائرة الفاسقين المجرمين، مرتكبي الجرم الأكبر، فيصفه وهو مغطى بالبثور، ووجهه مشوي عن آخره: كيف لنا أن نعتقد في احتجاجاته الناجمة عن الحب والاحترام، إذا وضح أن الأمر لم يتعد كونه مجرد انتقام بائس.

لماذا يتركه في هذه التربة المثخنة المضطربة، في هذا الرهط المقدر له بكاء آثامه إلى ما لا نهاية بوجه كالحبر غيّرته النار؟

Twitter: @ketab_n

يا لــه من مثال على السماحة والـروح المسيحية! فلنرجع مرة ثانيــة إلى موطنك: الجحيم هو تلك الغلالة الفاصلة التي تحول دون أن يعــرف الإنسان الله في جميــع صوره، هو الحجاب لمن يتأمل في تجلياته دون أن يراها رؤي العين. هذا هو ذنبه وعقابه الحق.

أخذ شخص ما يقرع باب الأستوديو مستخدمًا الطبلة النحاسية، فتبــادلا النظر في قلق: أو يقدر هؤلاء الذين لم يلجوا بعد إلى فضاء الشفافيــة أن يلمحوهما، ويتقابلوا معهما، ويتبادلوا معهما الحديث؟ التزما الصمت وحبسا أنفاسهما. وأخيرًا، بعد انتظار بدا بلا نهاية، تناهى لسمعهما صوت شيء ما ينزلق من أسفل الباب، يتبعه صوت خطــوات متذبذبة على الأرضية الخشبية، تــلاه أزيز المصعد يبدأ يتحرك.

Twitter: @ketab_n

-18-

وعلـى السجـادة المفروشة على الأرض فـي المدخل على بعد سنتيمترات قليلة من الباب، ظرف صغير مستطيل من دون إشارة عليه لهوية المرسل إليه. فضّه بواسطة فتّاحة الورق، بينما جسده ينتفض، وقرأ بصوت مرتفع؛ ليخبرها بفحوى الرسالة:

سيدي العزيز:

نطلب منكم الإجابة باختصار شديد، وبصورة واضحة ومحددة عن الأسئلة التالية، ولكم جزيل الشكر:

1ـ من هـم المتسترون، الأصفيـاء، الأتقياء، الحارسون المخلصون، الذين يتخفون بين الورى خشية أن يبصروهم؟

2ـ في أي تاريخ تحديدًا بدأتم ممارسة العادة السرية؟

3ـ ما عدد مرات إخراجكم وما إفرازاته؟

بإمكانـك أن ترسـل إلينـا الإجابـات مكتوبة، إذا بـدا لك أكثر ملاءمـة، وللعلم إن القواعد تسمح لك بالإفـادة الشفهية في مكاتبنا خلال ساعات العمل

تفضلوا بقبول احترامنا،

دكتور نكير ودكتور منكر

خبيرا الحساب

Twitter: @ketab_n

انتفض قلبه. كيف تمكـن المحاسبان من الكشف عن سر مخبأه القديم في مملكة الأحاسيس الملموسة؟ أترى يتحركان مثله، بنفس السهولة في مجال العالمين؟ رجع إليها متحيرًا، وتضاعفت حيرته حين وجد الباب مغلقًـا على حاله بمزلاج، وأن المكان لا يتيح أيّ نوع من الهرب، إلا أنها اختفت في صفاء وسهولة.

Twitter: @ketab_n

-19-

حيـن استيقـظ أو عبر مـن حلم إلـى آخـر، أربكتـه المفارقة التاريخيـة. لهـذا الموقـف: ألم يترك - بعـد موتهـا - الأستوديو المواجه لشقته حيث قابلها حاليًا، لينتقل بأوراقه وكتبه إلى الطابق السفلـي المتصل بشقة زوجته عبر سلم حلزوني؟ وإذا كان انفصاله عـن سجن الجسـد تم هنـاك، فما مغزى هـذه العـودة التخيلية أو الحقيقية للظرف السابق؟ وماذا عن هذا النفاذ الواضح، هل يخضع لتعسـف القوانيـن الحاكمة للأحـلام، أم هو محض أثـر لسلطات مسوخ الأرواح التي تهيم كيفما اتفق في البرزخ خلال الأربعينية؟

Twitter: @ketab_n

-20-

استثمـر في العالم الآخر، تملك أنت ونصفك الحلو قطعة أرض قابلـة للبنـاء، فيلا مستقلة مريحـة، أو شقة مـن طابقين في عمارة فاخرة. تطل بشكل استثنائي على الفضاءات السماوية المنيرة، في مختلف درجات الفردوس أو دوائره ، وفقًا لما يتيحه مسكنك.

نقدم عروضًا خيالية لمعروضاتنـا! تسهيلات كبيرة في الدفع، ومكافآت خاصة للمحاربين القدماء وعربات الحروب.

تصيح السيدة ذات المظلة خلال مكبر الصوت، توزع إعلانات ومطويـات، وتقدم نمـاذج للعقـارات والشقق وتصميمـات بناء صادقت عليها إدارتنا الإعمار الحضري والبيئة.

مقر شركتنا القابضة الأصلي فـي «تامبا»، وفلوريدا الولايات المتحـدة الأمريكية، تـم إعدادها بالتنسيق مع خبـراء القيادة العليا لعملية «عاصفـة الصحراء» ذات الشهرة العالميـة، الهرم الكامل للإمـارة الشهيـدة وإعـادة إعمارهـا، وهـو مـا أنعش اقتصادنا المحتضر، وملأ الكون إعجابًا وفزعًا. والآن، طويت هذه الصفحة العظيمة من تاريخ قواتنا ورموز علمها النجوم والخطوط، وقرر قطـاع الإدارة بعد اجتماعه بطاقم المساهمين المبادرة بقفزة نوعية ومـد أنشطته في مجال البناء هـذه المرة، التي تحترم عنصر البيئة

Twitter: @ketab_n

بما في ذلك ملكوت السماوات، من خلال تعاون وثيق مع مؤسسة (KTC) ومختلف المجموعات البنكية.

Sans oublier la touché du chic et du refinement. La difference francaise![3]

صرت منجذبًا مثل أرواح أخرى هائمة، نحو قاعة عروض الشركة القابضة، ثم ستتابع معها شريط الفيديو الذي سيعرض المادة الدعائية بمصاحبة أبيات شعر لـ «دانتي» وصورًا من الجنة بحسب رسومات «دوري».

تأملوا الجبل المقدس لكمال الروح وخطوبها، ألباب الفضاءات تعكس الأشعة من عليين، وتطبع على المادة صورتها.

كما ترون فإن الشرفة التي التقطت منها هذه المشاهد لشقة من طابقين في إحدى مبانينا السكنية، مزودة بجميع وسائل الراحة التي تطمحون إليها، بعد حياة كرست للصفقات وانتصار مبادئها للتقدم والعدالة.

لاحظوا تفاصيل حجرة الجلوس، والصالون البانورامي، وأجهزة التلسكوب المخصصة لمتابعة رحلات طيران المخلوقات السماوية، ومسار صواريخنا الباليستية.

(3) دون أن ننسى لمسة الأناقة والرقي، التميز الفرنسي. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

وضـع تحـت تصرفكـم التطـورات التقنيـة وأساليـب الغزو؛ لتستمتعـوا برغد العيش، وكل ذلك بأسعـار خارج المنافسة، وفقًا لما تحتمله مدخراتكم.

وفجأة.

Merde! Mais qu'est-ce que c'est ca?[4]

فبدلاً من تصميمات العالم تحـت القمري والرؤية الطوباوية، عكسـت الشاشة صور خراب ودمـار وأطلال، عربات متزاحمة تشتعل، أبخرة قاتلة تنفثهـا طائرات تحلق على ارتفاع منخفض، أجسـاد متفحمة، مروحيـات تقذف ألسنة اللهـب، مشاهد رعب، شتات جحافل نمل هائج، مشاعل، محيا أطفال ونساء يلهثن لنقص الأكسجيـن، نيران، مزيدا مـن النيران، سفـر الرؤيا، رعب، احتراق جماعي.

(صوت بعيد: Say hello to Allah)

شخصـ مـا (أترى شيطـان أم جني؟) يبدل شريـط الفيديو في الجهاز المتصل بتلفاز السيدة ذات المظلة.

(4) اللعنة! لكن ما هذا؟. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

-21-

هل هي ذكرى باقية من تدريباته الروحية في دير «مانريسا»، أم إعادة صياغة تالية على ضوء كتابات «بلانكو وايت» في «سيرته الذاتية»، وتداعيات «إستيفن ديدالوس» كما رسمها جويس؟، قالت: تلك الرسومات القاسية للعواصف، التشبيه بين الطائر الصغير وجبة الرمل يلتقطها بمنقاره كل عشرة آلاف سنة في الشاطئ الشاسع، القصة التعسة للمراهق الذي تقذف به ألسنة اللهب الخالدة، جراء ذنب واحد هو النجاسة، يعرض كل هذا ضمن مشهد مسرحي خبيث، ومحاكاة كهفية قبالة جمهور صامت مرعوب بعد أيام من عزل محكم. يتطابق كل ذلك في حقيقة الأمر مع صيغة منحطة فقيرة للإيمان الشعبي بالآخرة، وما يروجه الواعظون الجهال المتحكمون في بث الخوف.

لم يعد أحد يعتقد في الجحيم ولا في أسطورة الطفل الذي يحترق في قدور «بدرو بوتيرو» جراء خاطر خبيث عنّ له، وبعد أن دهسته حافلة عقابًا له.

استقرت بها الحال بأحد المروج، بالقرب من حديقة النعيم، وطوقا بناظريهما بئر المياه مبعث النشوة، تتحول إلى لهب الوجد الحي، والعين التي تعكس عيون المحبوب مجازًا، والشجرة التي

Twitter: @ketab_n

تنمو في صلب الروح المتأملة، نفوس الأبرياء المتجسدة في طيور صغيرة في طواف محموم، وريشها بياضه باهر. بادرت تهدئ من روعه؛ لأنها لم تكن تثق في حواسه، كل هذا يصوره الديوان الصوفي، ولن تأتي السيدة ذات المظلة لتعكر هذا السكون بحوارها المزعج.

قرأت بعناية مادة النص البحثية، وبالرغم من أنه لم يكن باستطاعتها مساعدته في العمل أو ترجمة أوراقه، فإن خبرتها المتراكمة المكتسبة في البرزخ مكنتها من الكشف عن أنوار وتجليات خاتم الأولياء. قالت: جهنم موجودة، لكن خلود الدوام بها لا يفرض ديمومة الآلام. ستمتد الرحمة لتشمل الجميع، وستصبح نار الهالكين بردًا وسلامًا.

ولأنه توجد مخلوقات أرضية وهوائية ومائية، فلماذا لا توجد النارية؟ أو ليست النار هي العنصر الأكثر جمالاً ونشاطًا في العناصر الأربعة؟. أما هذه المخلوقات الملتهبة، مهما كانت خطورة ذنوبها، تحيا وفقًا لقانون طبيعتها، وسوف تعاني إن حرمت مما تستلزمه طبيعتها؛ مثل السمك يختنق حين ننزعه من الماء. فالنار مجالها وفيها تعرف سعادتها الأبدية.

يا لعبقرية الطريقة هذي في تفسير نص الكتاب المنزل! أو تتصور فضيحة هؤلاء اللاهوتيين والفقهاء؟ انظر دائرة الأبطال

Twitter: @ketab_n

الرياضيين، بادية عليهم علامات السعادة، وجوههم وشواربهم المقرونة، عضلاتهم المفتولة، وأجسادهم المدملجة القوية، «مثل كتلة كريستالية موشورية الأبعاد، عظيمة الهيئة صافية»!

كم من المرات جثوت أمامها في ذل وإكبار من هول حجمها وأشكالها، وروعة تفاصيلها، الصلبة الكثيفة؟ بصرك بتجليات كون تسبح له فيه الكائنات قاطبة، بما فيها الأحجار، فهمت بهم عبادة. لقد ألهاك تكاثر الأشياء والكائنات. والآن بعد أن قرّت الروح وهدأت، ستقدر على التقاط انسجام العناصر وتوافقها بحماسة ساكناً ولطيفاً. انظر مجددًا لعرض الفيديو للحفرة واحتفالية الرياضيين ذوي الأجساد المتينة، تحترق معهم، مع أكثرهم أمانة وأوفاهم شجاعة. يتداخل جسداكما الملتهبان لحد ذوبان الواحد في الآخر! أوليس هذا ماكنت تبغيه على نحو خفي حين قررت تأليف الكتاب؟

Twitter: @ketab_n

-22-

زوجته! أمن الممكن لهذا أن يحدث؟

أتراهـا غـادرت مملكة المحسوسـات بشكل مؤقـت لتحيته، أم يكـون هو الذي قفز للخلف فتسلل إلـى درجة عالم آخر انقضى ؟ هذا الفضاء الحميم بمظهره المألوف لمنزله، بدا له مقلقًا مثل تلك اللحظات الهادئة الخادعة التي تسبق انفجار العواصف الهوجاء. وبينما يخلـع معطفه بحذر، استشعر حـركات زوجته بالمطبخ، تخرج مكعبات الثلج من البراد. تتوجه إلى حجرة المعيشة بخطى مرتعشـة؛ خوفًـا من أن تصـدر عنه لفتة مباغتة تخـل بالتوازن الهشـ للعناصر حوله. تتداخـل في ضميـره أحاسيس ومشاعر متضاربة.

أيجـب عليه تحيتها بينما تنسكـب دموعه بحنان، مثلما تتطلب الطبيعة الاستثنائية للظرف؟ هل يقذف بنفسه إلى أحضانها ويطلق العنـان لعاطفتـه المكبوتة؟، لكن كيف سيفسر لهـا بشكل عقلاني مقبـول اختفـاءه وعودته؟ ألن يكون في ذلـك مخاطرة تعرضها لصدمة تحرمها استخدام حواسها؟

على الرغم من ذلك، سمعها تحييه باسمه من المطبخ بطريقة طبيعيـة، بينما يدخل. كان الوقت المعتـاد الذي تتناول فيه كأس

Twitter: @ketab_n

الويسكي بعد يوم عمل محتمل أو زيارة بعض الصديقات.

بدا له المكان ملغومًا بالحيـل، وبعد أن اختبر خيارات عدة، مثل دخـول المطبخ للقائها، أو التسلل خلسة من المصعد الداخلي إلى مكتبـه، أو التظاهر بقضاء الحاجة، فيلجأ إلى الحمام انتظارًا لمـا سيحدث، قرر في النهاية البقاء فـي الصالون الصغير، وأن يسترخي مصطنعاً الراحة في أحد المقاعد الوثيرة.

سألتـه بعد أن ظهرت مرتديةً قفطانهـا الأحمر المشرب بلون بنفسجـي، وجلست على الأريكة بعد أن وضعت وعاء الثلج على الأرض:

ـ هل اشتغلت جيدًا؟

ابتلـع ريقه غير قادر على التفوه بشيء غير همهمة ما، يشعر بالرهبة والحيرة لوضعه، ومدى واقعية المشهد حوله.

لكـن كيف أنها لـم تبدِ أية دهشـة لرؤيته، ولـم تلامس شفتيه بشفتيها بخفة مثلما تعودت حين يعود بعد طول غياب؟

يبـدو الأمر لهـا؛ كأنه عائد لتـوه من جولة بالحـي أو كأنه لم يخرج أساسا من البيت.

انتظر لحظات ثم قال مخبئًا وجهـه خلف الصحيفة، متظاهرًا

Twitter: @ketab_n

بالاندمـاج في قراءة أخبار الحرب: تجاوز عدد الطلعات الجوية لقـوات الحلفاء معدلاً مثيـرًا للدهشة تجاوز ستيـن ألفًا! وأبرزت أخبار القـوات الخاصة المستـوى الرفيع لاستعـدادات الضباط والقادة إزاء الهجوم البري الوشيك.

قالت: لقد سجلت المكالمات الهاتفية. لا شيء مهم، فقط ترك صاحـب إحدى المكتبات رقم هاتفه. وبالمناسبة عندما نزلت إلى حجرتـك، عثرت على إحدى درجات السلـم على نسخة مدونة عليها ملاحظاتك لـ «الكوميديا الإلهية»، كيف نسيتها هناك؟ هل سقطـت منك مـن دون أن تنتبه لها؟ كانت تتحـدث بهدوء يتنافي تمامًـا مع طبيعـة لقائنا غيـر العادية، منهمكـة تمامًا فـي الشأن اليومي، حتى إنها لم تلاحـظ ارتعاشة يديه واضطرابه العميق. كشـف محياها الهـادئ وابتساماتها المعتادة بوضـوح غياب أي لمحة قلق أو عتاب. كان بالإمكان القول إن باختفائه القصير من العالم مكث قرينه إلى جوارها يؤدي دور الزوج.

فأيهمـا الحقيقي؟ ذلك الـذي يهيم في ضباب البـرزخ أم هذا الموجود بالمنزل؟

انتهـز انشغـال زوجتـه بمحادثة أبيهـا تليفونيًّا؟ قالـت بتنهد: أبي. نهض من مقعده الوثيـر وألقى نظرة على ترتيب الحجرة؛ ليتحقـق من أن شيئًا لم يتغير، هبـط السلم الداخلي ودخل حجرة

Twitter: @ketab_n

عمله يلقي نظرة. كانت الحجـرة مضاءة، ووقعت عيناه أول ما وقعـت على صورتهـا – شعر أصفر، عينان زرقـاوان، سلسلة ذهبيـة تطوق عنقهـا، كان وضعها على الخزانـة ذات الأدراج في أعقاب عودته إلى المدينة قبل عام ونصف، بعد هجرته لعالم الخفة خلال أحد أسفاره. تفحص بسرعة رفوف المكتبة المحاذية لمكتبـه؛ قواميس، مدونات، أعمال للمراجعة، كل شيء بقي في مكانه. عثر على بعض أوراق لنصوص له لم تنقح. التقط أحدها واكتشف مضطربا أنها مسودة المخطوطة الخاصة بهذا الفصل.

Twitter: @ketab_n

-23-

رأى في المنام أنه يكتب قصة لـ « ابن عربي»:

وإذا سألتموني وماذا عن حكاية « الجوهري »؟ بإمكاني إخباركم بحسب ما قاله هو نفسه، أنه خرج ذا صباح طيب من منزله يحمل عجينًا مختمرًا إلى فرن الخباز وكان جُنبًا. وبعد أن ترك ماله لدى الخباز توجه إلى نهر النيل ليتطهر، وبينما هو في النهر، إذ به يرى نفسه على الحال نفسها التي نرى عليها أنفسنا في الأحلام، كأنه ببغداد. كان متزوجًا من امرأة لمدة ست سنوات، وله منها عدة أبناء، لا أذكر الآن عددهم. ثم ارتد إلى نفسه، وكان لا يزال في الماء، تطهر وخرج من النهر، وضع رداءه، وعرج على المخبز ليحمل الخبز، وحين عودته إلى البيت قص على عائلته ما كان من أمر الرؤية التي أبصرها. مرت شهور عديدة، وجاءت إلى المدينة السيدة التي بنى بها في النيل، وجعلت تطالع معالم المدينة. وحين طرقت باب بيته عرفهم على الفور، هي والأبناء، ولم يقدر على إنكارهم.

سألوها متى تزوجك؟ فقالت: منذ ست سنوات وهؤلاء أولادنا. وهكذا فإن ما حدث في الخيال ظهر ملموسًا في عالمنا.

Twitter: @ketab_n

وهذه إحـدى الحكايـات المروية عن «ذي النـون المصري» وتحتار في تفسيرها العقول.

هـل كانت هـذه الحادثـة إفصاحًـا أدبيًـا لبهجة خيـالات بعيدة الاحتمال، تلـك التي عرفها «بلانكوايت» واختبرها «بورخس»؟ أو أن الأمـر، كما لاحظـت زوجته عندما عرضـ عليها النص، مجرد حيلة ماكرة ساقها «الجوهري» ليبرر زواجه من امرأتين، فأكسبها هالة من القداسة؟

مـا كانت هـى علـى يقين منـه أنهـا لو كانـت محـل الزوجة المصريـة، لما اقتنعت بالقصة ولما استقبلت امرأة بغداد وبصحبتها حفنة الأولاد.

قالت بحنـو قبل أن تغادر الحلم وتتلاشى؛ إنها لحسن الطالع لن تتعرض معه لمثل هذه المخاطر.

Twitter: @ketab_n

-24-

وضعت البهيمة قوائمها عند عتبة الباب وتمكنت منها، وبالرغم من أنني حاولت منعها من الدخول، خارت قوتي إزاء لامبالاتها الجبارة، استولت على المكان بتمهل، تَجول المنزل وعليها سمات المالكة، تتمدد على البساط إلى جوار فراشي وتتأملني لساعات. لا أميز خيالها بوضوح، ولكني تبينت حدقتي عينيها المثبتتين فوقي. لا تفارقني نهارًا أو ليلاً، تترصد حركاتي وخطواتي برباطة جأش، ولا تلتفت بأي حال إلى صخب الزيارات. لم تشعر بوجودها أمي أو أخي أو زوج أمي أو الطبيب الذي حضر لعلاجي.

يسيرون بمحاذاتها ولا يبصرونها، يجسون نبضي ويتابعون صحتي وشهيتي، يعربون عن قلقهم بشأن حالتي العقلية.

وحين أحادثهم عنها لا يلتفتون إليّ، يوجهون لي عبارات التشجيع، ويوجهون دفة الحديث لموضوعات أخرى. يتحدثون عن شطط عابر، انفصام في الشخصية. عاجزين عن رؤية عيني البهيمة الخضراوتين المتقدتين، غير متماثلتين، تبدو أحيانًا كزمردتين مرصعتين في رأسها عند محيطين غير محددين، في أحيان أخرى تجدهما معلقتين في الفضاء، متوازيتين، طافيتين ببؤبؤهما الذي لا يُسبر غوره، منتبهتين لأهون إيماءاتي.

Twitter: @ketab_n

ترقباننـي بدأب، وبالمثـل تفعل مع عائلتي، عينـان تتضاعفان نظراتها وحركاتها: تقتحماني من الباب، البساط، النافذة والسقف. أزواج عيـون متعـددة تقف في أماكـن مختلفة في غرفـة مستشفى الأمراض النفسيـة التـي نقلـت إليها: خضـراوان علـى الدوام، براقتـان، غير متناسقتين، غايـة في التحديد غير أنهمـا متقابلتان، مثبتتـان على أينمـا نظرت، حتـى إن أغمضت عينـاي. تحول ما كنـت أخشاه وأنا طفلة منذ موت أبي إلى واقع ملموس. تفجر وجود البهيمـة التي تتفحصني في حياتي، سيطـرت على نفسي وحواسي، تتحكـم بعقلـي وتحجم إرادتـي. عيناها الفاحصتـان موجودتان في كل مـكان، تتكاثران مثل فيروس خبيث، تغرقني بوجودها في كل مكان: أجدهما في ثنايات الفراش، على صينية الإفطار، غائصتين في كوب الماء، ذائبتين مع نقاط العلاج التي وصفها الطبيب، كيف لا يرونها جميعهم؟ هل كف بصرهـم؟ هل نظرهم أعشي لدرجة ألا يرونها؟ ولأهرب منهم أغادر سرًّا المستشفى، أتجنب المرور بخدمة الملاحظة و أنطلق جريًا إلى محطة القطار الواقعة بتلك البلدة الكريهة في الضواحـي، بمنازلها المصطفة، وشوارعهـا بالغة النظافة لحد القنـوط، ولافتات معلقة تهدد بوجود كلاب شرسة، متوحشين مثل أصحابهم، أستقل القطار المتوجه إلى باريس، أجد نفسي في محطة «جاردي نورد» وبعد ذلك بسنوات حين قرأت كتابك، وصادفتني

Twitter: @ketab_n

عبارتك الملغزة التي تصفني فيها على هذا النحو: «الصرخة النافذة» للفتاة النافـرة التي تعبر صالة محطة القطـار، وتُشكل حولها فضاءً مقدسًـا لا يستطيع الفضوليـون اختراقه، فهم غربـاء عن هذيانها، انفصلـتُ عن إحداثيات الزمان والمـكان، ورأيت نفسي مجددًا في صالـة محطة القطار الشاسعة، التي تعـج بالأشخاص، تتربص بي عيون البهيمة المتضاعفة بشـكل لا نهائي، فيما أسعى لأشق طريقي وسط الجمـوع المحتشدة، يفرقها صوت مكبر الصوت، فأكثف في تلك الصرخة جل وحدتي وجزعي.

وعلـى الرغم من أنك لـم تحددني بالاسم، فإننـي عرفت أنني المقصـودة. غير ذات قيمة إن كنت أو لم تكن شاهد عيان للمشهد، ألم تكن فـي ذلك التاريخ محطة «لاجـار دي نورد» هى محطتك خلال درجات صعودك؟ كشفتني عين الخيال.

أعتقـد أن هاجس لقائنا أنقذ حياتي، وأتـاح لي التغلب على تلك الوحدة. لم يكن الفرار من دون جدوى، لقد عدت إلى المستشفى. وشيئًا فشيئًا بدأت عيون البهيمة تحل قبضتها، تخلت عن حصاري، ورفعت الحظر، ذابـت تدريجيًا في الجناح المعقم للمجاذيب الذي أرسلتنـي إليـه عائلتـي. ومـن دون أن أدرك يقينًـا، خمنـت أن شخصًـا ما قد التقط معنى الصرخة، وعثـر في تحديه على منطق ذاك المعنـى وحصانته. منذ هذه اللحظـة، شعرت بصوت داخلي

Twitter: @ketab_n

يناديني، صغير رقيق يخرج من أعماق صدري ويتركني معلقة، أتأمل مدى رسوخه داخلـي واقترابه من نفسي، وفي الوقت نفسه فهو قصي، وعلى قدر مشقتي المبذولة، لم أتمكن من تملكه. لكنني شعـرت أنني شفيت، وقادرة على مواجهـة الموجود، والبعد عن عائلتـي، وأن أتلمس حظي في أمريكا، فأتزوج وأنفصل، وأتابع دراستي الجامعية حتى اليوم الذي عرفتك فيه مصادفة، في إحدى الدعـوات المملة لعشاء الأساتـذة والخريجين فـي «مورنينجسايد دريـف»، وتولـدت لديّ قناعـة – حتى قبل قـراءة كتابك – بأنك مـددت لي يـد العون في أحلـك لحظات المحنـة والشقاء. ولحظة اختفائي في النهاية، عقب ارتحالي وسفري إلى البرزخ، أدركتني الراحة حين اكتشفت أنك لم تكن في المقبرة مثل الآخرين.

استمتعـت روحي حينهـا بالشفافية، وحفرت بهـا أخيلة العالم، باستقـلال تام عـن العصور والمسافـات. استمع إليّ جيـدًا: شكّل نصـك مستئنسًـا بخبرتي المباشـرة لحدس الروائييـن والمتصوفة الذيـن أطلعتنـي عليهـم. ألا تـرى أن الأحلام التـي لا تقدر على إدراكها سوى العين، قادرة على اختراق ما جرى، وما يجري، ومـا سوف يجري. فأيـة ملكة، فيما عدا الخيـال، تحظى بموهبة لتشمـل وتخلـط الأمكنة والأزمنـة، وتوجز الكـون كله في رحم كتاب محظوظ؟

Twitter: @ketab_n

-25-

لا يرتبـط الأمـر بشريط فيديو السيدة ذات المظلـة، أو الشاشة التي تعرض لوحات «جوستابو دوري». يسمح الفراغ الحضري الذي تعبره بتتابع لا نهاية له؛ لأطلال قذائف وأخاديدها، واجهات مبـانٍ تزعزع توازنها، مـآذن مبتورة، بقايا حافـلات متفحمة، دبابات مهجورة بداخلها ذخيرتها، محطات وقود مشتعلة، مساكن جوفـاء فتحاتهـا سـوداء، بقايا النهـب وعربدة الدمـاء، وضحايا الإعـدام الجماعـي، تلفهم موجات هـواء يستحيـل تنفسه، رائحة عطنة لها مذاق مسكر لأجساد متحللة، وآلاف المدنيين المشدوهين لحظـة هروبهم، عيون جاحظة من أثر الهـول، جبهات اخترقتها الرصاصـات، وأياد متوترة تشير بإصبـع السبابة لاتهام المسئول غيـر المرئي عن هذه المذبحة. أتـرى تمت التضحية بهم كخنازير تجارب على مذبح التكنولوجيا الحربية الحديثة أم هو الثأر الأعمى للخاسر؟

لن تقدر أن تجيب بدقة بسبب موقع رؤيتك المهتز.

بالمثـل لا تعرف مـكان وجـودك أو كيف وصلـت إليه، قبل وصول جماعات ابن آوي وزحف قوات العدو. هؤلاء المنبوذون المجهولون الذين تجاهلهم دانتي، أهم أكراد، أم شيعة، فلسطينيون،

Twitter: @ketab_n

مرتدون، أم فارون من الجندية، جميعهم فريسة للرعب أم مجرد أبناء للأرض الخصبة لما بين النهرين، يستمسكون بغريزتهم في البقاء أحياءً، كونها الحقيقة الوحيدة الراسخة التي لا ريب فيها. أم لعلك وصلت إلى الدرك الأول من جهنم، سهل الزعابيب أو سجنها الذي يلتهم قاطنوه لحوم أجسادهم، وينهلون من دمائهم، بحسب رواية المسافرين؟

نثرت في الأرض بذور أشياء هجينة، خلفها شعب ضل طريقه خلال هجرته، حرمه التاريخ بقسوة من ضوء العدل: أوعية طهي، ألحفة، بطاطين، قطع ملابس من أزمنة شتى، مواقد غاز، براد بلا باب، أحذية أطفال، أحذية برقبة من قياسات وأشكال مختلفة، خوذات جنود، دمية مبتورة منزوع شعر رأسها، شاه كانت تجز ما يشبه العشب، مربوطة بحبل بيد صاحبها الصلبة المتيبسة. تجبرك قوة جاذبة أكثر سلطة من الرعب نفسه؛ لكي تتوقف وتفحصهم جثة جثة، الأجساد الملقاة على الأرصفة، وفي النواحي ومنعطفات الطريق، وفي تقاطعات المدينة الشبح، التي دكتها القنابل وأجهزت عليها، والطاغية؛ طفل صغير، حفر الفوسفور في وجهه أخاديد، جفناه شبه مصهورين، يتدليان كأنهما قصتا شعر، عسكريان متفحمان بفعل سلاح تحركه أشعة الليزر، يمكن التعرف عليهما من خلال حزام الخرطوش وخوذتيهما عديمتى

Twitter: @ketab_n

الفائـدة؛ جذع جثـة مبتورة الأطـراف مكسوة بالكامـل بالذباب. يعاتبـك حدس لا زال مضطربا لكنـه حثيث؛ ليدفعك أن تتوقف هنا وتدع طريقك.

هل ياتـرى يرغب في أن يجنبك الانحدار المؤلم إلى الدرجات السفلـى من الجحيم؛ حيـث يتدفق نهر كبريتي يغلـي، سكانه فقدوا عيونهـم، بينما تلتهم حيات ضخمة السالف ذكرهم. يتملكك الحزن ويرسـخ فـي أعماقـك، يوعز بظهـور وشيـك لأخيلة أكثـر قربًا وإيلامًا، نبش القبور والجروح الغائرة والندبات المستحيلة. تتقدم مرتعشًـا، علـى الرغم من قيظ الضباب ونتانـة الجثث، نحو شبح سيدة منبطحة علـى وجهها، سيدة أنيقة تتلفـح بمعطف فرو أنيق، على رأسها قبعة من طراز الثلاثينيات.

تطوقهـا هالة من النور الوضـاء ينتشر حولها من دون غيرها، فيميزها الناظر عما حولها للوهلة الأولى، تبدو كأنها ترسل رسالة خصتـك أنت وحدك بها. يجمد هاجس ما قـواك، يستبعد النصائح والتحذيـرات، يرسخ في نفسك بحتمية الافتقـار إلى الإيمان. من هي؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا لا تجرؤ على أن تدير الجثة لتكشف عن وجهها؟

أتخشـى ألا تعرفها بعد وقت طويل، علـى الرغم من صورها التـي تحتفـظ بهـا؟ أم تخشـى أن تعمـي بصـرك بجمـال محياها

Twitter: @ketab_n

واستدارة وجهها الممتلئ الذي أصبح كاللهب الحي؟ تحبس أنفاسك وتنحني فوق حقيبة يدها التي ما زالت تقبض عليها، وتتحقق من دقة الذكرى الأليمة، بعيدًا عن الرعب، جميع هداياكم كما هي لم تمس. أهي أم أشخاص بعينهم، لهم مفاصل، أعصاب، دم، عمود فقري وعظام، أم هي رمز وتجسد لجميع الأمهات اللاتي تفاجئن بالقصف بينما يقمن بالتسوق في برشلونة، أو البصرة أو بغداد؟ ألم تتآمر على طيفها هذه الحقبة من الزمان؟ فأية شرارة تلك التي غذت الكابوس الليلي وأعادت الرؤيا الغليظة التي وجب أن تبقى دفينة في كثافة عمق الأرض؟

Twitter: @ketab_n

تغمض عينيك، مدعومًا بالسكينة والهدوء، تتجول بخفة، بمحاذاة الأرض، في الطرق، المدافن، والأضرحة. تكتلات المقابر التي تجولت بها قبل سنوات مترسخة في جسدك، خلال إقامة تشبعت وأثمرت تدريجيًا، لم تنسها ولن تنساها أبدا.

حين كنت متلحفًا بغطاء متهرئ، ما بين قبر أجوف لرجل فارق الحياة منذ نصف قرن مضى، وفراش من القش يرقد عليه رجل عجوز، عشت هناك جذبتك وتخيلت مملكة الأطياف، تحررت من هيئتك المادية خلال الحلم، واتحدت لوقت عابر بنخبة الأرواح المارقة المقيمين في «القرافة»، يتلاشون في قبورها ونواويسها السرية كلما أشرق شعاع يوم جديد. تملكتك الخفة، تنزلق بخفة ونعومة من دون جهد فوق الدهاليز الصغيرة الوحيدة، القباب المضلعة، والمآذن الرشيقة، تنبش أخيلة جولتك النهارية وذكرياتها؛ طرق يكسوها التراب، واجهات متهالكة، شجيرات هزيلة، مخلفات، أنوال بدائية، أبراج حمام، حدائق ومناطق للسكن. يكسو نور القمر الآن المساكن المطلية باللون الأخضر والترابي، مزينة الأفنية بالزهور والآيات القرآنية على الموزاييك، أوعية المياه وسعفات النخيل موضوعة فوق القبور.

Twitter: @ketab_n

انطفـأت علامات الحياة الزائلة بالمدينة في المصابيح، القناديل ومصابيـح الغاز. آوت إلـى منازلها عائـلات، وقطعان، طيور الحظيرة؛ لينعموا بالسلام وطراوتـه بعد سخونة الشمس والتراب وعنـاء اليوم. إنما هى ساعة السبـات العميق، حين يخرج الموتى مـن أضرحتهم، ويتواصلـون مع النائمين خـلال خيالات التهجد الليلي.

يتحسس علية القـوم الذين علقت في المقابر صورهم، يرتدون فيها المعاطـف والطرابيش الحمراء، غفلـة الحراس للاستراحة، فيشاركون بغم ظاهر في هذا المشهد الذي يغط في الانهيار والدمار المحتوم.

أتـراك تحلق الساعة، متمسكًا بجناحـي «إسرافيل» المهولين، مثـل جناحي ديـك السماء الأولـى ورأسه، التـي وصفها مؤرخو المعراج بأنها تصل إلى ما هو دون عرش الله؟

أم أنـك تحيا نشـوة الخفـة، والدعوة الموحيـة بالخطر وبهجة انعدام الوزن؟ لا تسهر نفس واحدة للاستماع إلى نشرات الأخبار عـن الحرب النظيفة، وآثار الأسلحة الذكيـة في مهماتها الجراحية بغرض التهدئة، إلا أن آثار الكـرب المنتشرة تثير قلق المواطنين بمشاهد الموت والخراب.

Twitter: @ketab_n

مشاهد يكسوها الرماد والرقائق المشتعلة. هل هذه المرافق هي ما تزعج (أحمد) في حلمه بينما يحتضن زوجته، ويتنفس أنفاسًا متقطعة، لا يدرك وجودك الماكر بعد طول غياب؟ استنزافك لخصوصيته جعلك تتخيل سماع صوت المقرئ، يرتل السورة السابعة والستين في القرآن، في إحدى سرادقات الشوارع أعدها أقارب المتوفى لإحياء ذكرى الأربعين. تطير رابعة والبسطامي في سرب من منحدر الجبل شبه العمودي، وأبراج القلعة وقبابها. أتراك تحلم مثلهما، أم أنك تستمتع بنشوة النعيم بعد أن تطهرت وصرت شفيفًا؟ هل تجاوزت حدود الزمان والمكان بفضل الخيال، فتخلط ما بين الموجود وما يتم استدعاؤه بخفة من دون أن تلمس الأرض؟ وتشهد جنازة البسطامي في اللحظة التي يستمع فيها الحشد الذي تعلوه سحابة الطيور الخضراء إلى آذان الصلاة ينادي بها المؤذن، وفي هذه اللحظة الإلهية، يرفع الميت الراقد يده من الكفن مشيرًا إلى السماء، وفي اللحظة عينها، تطوق الظلال الشفافة قبر عاشقة الحب الإلهي، فتلمس أركانه بأطراف أصابعها، التي تمسح بها برقة على وجهها ثم تجثو إلى جانب القبر، تتحسس كساءه، وتهمهم بصلاة خليط ما بين الابتهال والتوسل.

وماذا بشأن المفارقات التاريخية وتعارض الخطط، هل ترجع إلى أداء الموتى خلال الأربعينية أم أنها امتداد لشمولية الظلال؟

Twitter: @ketab_n

تنتشي ويغمرك النعيم لرؤية جمال المقابر وسكونها، بواباتها الحديدية، الدرابزينات، المسلات الجنائزية، البيوت الصغيرة تزينها رسومات الكعبة والحج، وآثار كفوف مطبوعة بدماء خروف الضحية على الجدران. لقد عادت إلى جوارك، وبينما تشير إلى جسدك الراقد بباريس خلال لحظات الهجرة المذكورة قبل قليل، تهمس وقد احتوت في إيماءة واحدة الكائنات والأشياء الحاضرة في نصك، عمياء هي العين التي لا ترى ما الذي أنت بحارس له.

Twitter: @ketab_n

-27-

أخذ الصالون الصغير بمقاعده الوثيرة يمتلئ شيئًا فشيئًا في شكل نصف حلقة أمام التليفزيون، بجمهور من زبائن البار أو السائحين الجائلين، قبيل إذاعة الأخبار المتعلقة بوقف إطلاق النار، والنهاية الوشيكة للقتال.

توجد بين أناس غرباء عنك، محروم من قربها الحميم، ومن الرحالة السماويين الذين اعتادوا الالتفاف حولكما دائمًا.

تتابع الفواصل الإعلانية بتراتب، وفي النهاية تختتم بلحن البرنامج ومشاهده، ثم تظهر على الشاشة السيدة حاملة المظلة، ترتدي ثوبًا من الأورجانزا بنفسجيّ اللون، موشي بالدانتيلا وشرائط كبيرة، وتضع عقودًا زجاجية، وحليًّا أخرى، وقلادات، جوارب بيضاء وحذاء بكعب عال مزين من ناحية مشط القدم بأحجار وألماسات صناعية. وبعد أن أشارت بالتحية ناحية اليمين واليسار، جلست عند رأس الطاولة مثلثة الشكل، تصطف عليها الميكروفونات، ثم بدأت بتقديم المدعوين نجوم الجلسة، وهم من الأسماء اللامعة في الحياة الفكرية والأدبية، تمت دعوتهم لمشاهدة الظروف الراهنة على الهواء من خلال القمر الصناعي، ثم التعليق على الأحداث.

Twitter: @ketab_n

فيلسوف شعره طويل مموج يشبه جورج صاند.

عالـم نفسانـي له العديـد من الأعمـال المرجعيـة الأساسية في التخصص.

عالم في السياسة، متخصص في دراسات الكرملين، ثم تحول للتخصص في الدراسات الإسلامية.

ويا لها من مفاجأة.

هذا هو الشاب ذو الوجه الضامر، متدثرًا في جلباب رث، يضع طاقية عفريت، يدخن نارجيلة «الكيف» بينما يجلس القرفصاء عند باب الحمام.

بعد تتابع عـدة مشاهد يظهر فيها جنـود مبتسمون ومهندمون، مصحوبة بمواد توضيحية بأسهم تتحرك وأهداف تشير إليها أضواء تومض، وصـور ناعمة لقذائـف باليستية، دمـار يصيب نواحي بيضـاء نائيةً مجهولـةً، تعود السيـدة ذات المظلـة وتعطي الكلمة للمدعوين.

جـورج صانـد: لا توجـد جروب جميلـة، لكن هنـاك حروبا عادلة، هذه بحث عنها أصحابها بكل عند وجهالة! حشدهم البدائي، وغرامهـم بالطاغوت أخرجهم من التاريـخ، كأنهم بقايا منصهرة بلا شكل أو هوية.

Twitter: @ketab_n

المحلل النفساني: ترتكز هويتهم على شبح سري يشكل أصلاً رمزيًّا، نشيط بقدر ما هو كامن في اللاوعي. هو الحلم بالأمة الواحدة – الأم، اللغة، الدين، الأرض – متماثلة ونقية من دون تدخل «الآخر»، يفترض في نهاية الأمر غياب الأب وتسامي زنى المحارم.

عالم السياسة: ولم ينته الأمر بعد! من يضمن لنا أنه في المستقبل لن يظهر عبقري آخر؛ يخصص موارده البترولية أو ما شابه ليضرب بضربته في المجال الكيميائي، علم الجراثيم والأسلحة النووية، قبل أن يغزو جيرانه، ويهدد الغرب بالإرهاب، ووفقًا لوسائله، بالدمار الشامل أيضًا؟ على الرغم من أن هذا الافتراض غير محتمل على المدى القريب، فليس من الخيال أن يقع على المدى البعيد.

يظهر الشاب بجلبابه وطاقية العفريت

يـــا عبـــــــــاد اللـــــــه، غيثوني

ذهول، سعال، أصوات احتجاجات، سباب؛ وإذا كان مجرد معتوه، فما هذا الهراء الذي يتلفظ به بينما يسير؟ ألا يوجد من يترجم هذه الرطانة؟ لماذا لم يحضروا شخصًا أكثر لياقة؟ أم أن مواطنيه جميعهم، لا يقلون عنه جلافةً ؟

Twitter: @ketab_n

يضـع جورج صانـد والمحلل النفسي وعالـم السياسة نظريات جديـدة بشأن عقدة أوديب، الافتقار إلى النضج، التحجر، مرض جنـون العظمة، ونرجسية المنوميـن مغنطيسيًّا، لكن لا أحد يهتم: يتحرك الجمهور من القول للفعل، ويبدأ في قذف الطماطم والبيض الفاسد صوب الشاب «المورو» العربي صاحب الجلباب.

تجـذب السيـدة ذات المظلـة من حقيبـة يدها مبسـم سيجار من العنبـر، وتضع فيـه سيجـارة فليبينية وتشعلها بولاعـة من طراز «رونسون»، ثم تزفر سحابة دخانية لتسترخي وسط هذا الصخب العام.

علـى ما يبدو، فلم تعـد تظهر على الشاشة، فتسيـر وتقف إلى جوارك تمور غضبًا للإهانة التي لحقت بكرامتها.

مـع التهاني، تقول لك: ألا تشعر بالخجـل من ابتعادك عن هذا الإجمـاع الخلقي البديـع الذي يتأسـس عليه حاليًا النظـام الدولي الجديد؟

Twitter: @ketab_n

-28-

وماذا عن خلق النص الروائي، أليس مثله مثل الأربعينية؟

ألا يضطر الكاتب إلى الانعزال عن العالم في المرحلة المبهمة التي تسبق تكوينها؟ ألا يضطر إلى أن يحيط نفسه ومادته الروائية الخام بحبل صحي ذي حواجز للحماية؟ ألا تتطلب قدرة الكتابة التي تسبب العدوى - ويكون ضحيتها الأولى الكاتب نفسه قبل أن يتحول إلى آداة - أن ينسحب إلى عزلة شبيهة بعزلة نزلاء المستشفى، أو الرهبان الملبوسين بحضور الرب؟

تتطلب مغامرته الحمقاء جمع عناصر نصه وتنظيمها في إطار غير محدد ومبهم، وأن ينشئ بين علاقاتها خيطًا مثل خيوط العنكبوت، ينسج شبكة من المعاني تتجاوز الزمان والمكان، تجاهل قوانين المعقولية، نبذ الأفكار البالية عن الشخوص والحبكة، وإلغاء الحدود ما بين الواقع والحلم، قلقلة القارئ عن طريق تراكب مستويات التأويل وشهادات الأصوات الموثقة، استلاب ملكية الأحداث التاريخية وإشعالها وقودًا لخدمة المشروع «النص»، الحياة والموت والبعث لك وللآخرين.

ألا يتطلب تكثيف كل ذلك في موقع ذهني تحضيره بعناية؛ ليحتضن المرض المعدي ويحول دون انتشاره قبل الأوان؟

Twitter: @ketab_n

فمثـل جميـع الأوبئة، فـإن الوباء الـذي أزهر فـي خلاصة نبت الروائـي، يبحث بعـد الأربعينية عـن امتداده الطبيعـي في شكل القـارئ المتلقي لدعواه المعدية الخصبة. ومنذ أن يتولى هذا مقاليد مخاطر المغامرة، يعيش هو نفسـه الأربعينية، معزولاً عن العالم في فقاعتـه الخاصة، منهمكًا فـي متعة العدوى الملوثـة. أربعينية الكاتب، أربعينية القارئ، أربعينية الكتاب، لا غنى عنها جميعًا في الأثر الفاعل لتحفيز وتحويل الكلمـة المكتوبة. وعين الخيال هذي في محيط الإيمان بالآخرة، ألم تصطبغ بعلمانية ما، على الأرجح مردها الروائيون أنفسهم، محط إعجابها.

Twitter: @ketab_n

-29-

نصحتـه زوجتـه أن يستقل الحافلة رقـم (93) عند بورت سان مارتيـن، قالت لـه: ستتـركك عند المـكان بالضبـط، لكن ولعه الشديد بالمتـرو كان أكثر قوة، من دون أن يعير التفاتًا لمضايقات تغيير الاتجاهات. غاصـ في النفق الأرضي الحضري من الفتحة الأقرب، اكتشـف بسعادة أن الباب الأتوماتيكي الصغير المتحرك آليًـا انفتـح أمامه من دون الحاجـة إلى بطاقة، كأنهـا دفعت مسبقًا باحترام من مجهول خارق.

بدا لـه الحدث بشـرى للخير، وبينمـا يقطع الرحلـة في عربة مزدحمـة، احتضن حقيبـة أوراقه وسجلاتـه؛ ليبرهن على صدقه ونيتـه السليمة خـلال استجـواب المحققين لـه. لم تنطـوِ الأسئلة الثلاثة المطبوعة على الآلة الكاتبة على صعوبات كثيرة، لكن بعد ساعـات من تلقي الرسالة الغامضة، عثر على سؤال رابع مكتوب بحبـر سري ثـم استبانت حروفه: «ما نوع الكتـاب الذي تقومون بكتابته، وما الدور الذي نلعبه فيـه؟». كان من المستحيل الإجابة عـن السؤال بشكل كتابي، فقـرر أن يلجأ إلى خيار كان مقررًا في صحيفة الشروط، ألا هو تقديم عرض شفهيّ للموضوع في مكتب محكمـة الحسابـات. ولكيلا يستسلـم للتثبيط ويحافـظ على رباطة جأشه، اعتبر الأمر بمثابة شرك ينصبه له «منكر»، كخطة لاختبار يقظة ذهنه وسخريته الفطرية.

Twitter: @ketab_n

وكما شـرح لها قبل رحلة العبـور، فإن تجربتـه القصيرة مع منكر تكذب، بشكل قاطع، ما يشاع عنه من أساطير بشأن صرامته وخططه السادية المزعومة.

(لم تكن الأمور مع زوجته بمثل ذاك الوضوح)

تقـع المحكمة بالقـرب من المحطـة، توجه إليها سيـرًا منبسط الأسارير، ممسكًا بحقيبة الأوراق التـي تضم القرائن والوثائق، هـدأ روعـه بفعل الأجـواء الطبيعية مـن حوله والمظهـر العادي للأشخاصـ الذيـن يقصدونه لسبـب أو لآخر. صعـد السلالم من دون أن يتـرك نفسـه للانبهار بعظمة الأعمـدة المنذرة التي تزين الواجهة، ولج القاعة الشاسعة، يحتشد بها الجمهور كالنمل، انتظر دوره في طابور أمـام نافذة الاستعلامات الصغيرة، وتسلم بطاقة كارتونية صغيرة تشير إلى الطابق والممر ورقم مكتب الممتحنين، وبطاقة أخرى ذات لون مختلف يظهر فيها رقمه المحدد. اصطحبه برقة مرشد لـه حاجبان ولحية شيطان، من هـذا المكان المزدحم المزعج إلى الطوابق العليا، وللوهلة الأولى تبدو مهجورة يسودها الصمت.

أشـار إلـى مقعد في طرف القاعـة؛ ليجلس فيـه وطلب منه أن ينتظـره هنـاك. وقـال: حينمـا يستعـدون سيبلغونـك. جلس بعد أن تمتـم بكلمـات الشكر، واضعًـا محفظته فوق ركبتيـه، مستغلاً

Twitter: @ketab_n

الانتظـار ليستحضـر إجاباته بشـكل طبيعي. ولم يقلقـه الانتظار؛ علـم أن الممتحنيـن لـن يمنحوه وقتًـا إضافيًـا، وفـي المقابل لن يقضيـا في الأمـر بسرعة على الرغم من المجهـود الذي يبذلونه. مـن وقت لآخـر، كان ينفتح بـاب في الردهة، ويطـل منه بشكل خاطف رأس امرأة للتأكد مـن وجوده، للحظة تلقـي عليه نظرة محايـدة وتختفي. وبطول وقـت الانتظار، نهضـ ليحرك ساقيه ويسير بضع خطـوات. ظل الممر مهجورًا، لكـن خلف الأبواب الصلبـة المصنوعة من خشب البلوط، سمعت حركات الموظفين، والمكالمـات التليفونية وصوت النقر على ماكينـات الكتابة. ومن أبـواب أخرى تـردد صدى صوت خافـت لأسئلة عبـر مكبرات الصـوت، تتقطعهـا شكوى وتأوهـات. تأكد من أن أحـدًا لا يراه وأرهف سمعه عنـد باب مزينة صفحته برسومـات لنساء ورجال عرايا، بفكي كلب، وأذن ماعز، وحوافر ثور، وصوف خراف؛ بالرغـم من بعدهم، كانـت تصل إليه أصـوات صرخات وأسى، ولفحات ريـاح مشئومة. وفي المكتب المجاور علقت لافتة بجميع اللغـات تحذر من أن هـذا المكتب مثل مكاتـب الجمرك، يضطلع بتسجيل جملة ذنوب الأرواح المعذبة وحفظها؛ ذلك حيث «يحبس التائبين البرد الزمهرير». إذا لم تخنه ذاكرته، ألا ينتمي هذا البيت إلى النشيد الواحد والثلاثين من «الكوميديا الإلهية»؟ وحين أوشك

Twitter: @ketab_n

علـى موارية البـاب والتجسس على مـا يحدث بالداخـل، أجبره الصرير الصادر عن حركة المزلاج على التراجع والعودة سريعًا إلـى المقعد الذي حدده له الدليل. وقفـت أمامه سيدة معتلة المزاج تضع نظـارة. قالت: رقمك. قدم إليها البطاقـة وفتح الحقيبة على الفور ليظهر لها الشهادة الطبيـة ونتائج التحليل. بإمكان حضرتك أن ترى أن معدل الإخراج وكثافته طبيعيين، ولا أثر لأي اختلال أو إصابـة طفيليـة. وبالمثل لا أثـر لأي زلال، يكشف عن وجود خلل سرطاني أو التهاب ما بالغشاء المعوي المخاطي. تنحنح؛ فيما يتعلـق بالسؤال السابق، فإنه لو سمحت لي باتباع ترتيب مختلف، فبعـد أن فكـرت كثيرًا واستدعيـت ذكريات فصـول الصيف التي قضيتها مع عائلتـي، أستطيع الجزم بأنني مارسـت العادة السرية الأولى في سـن الثانية عشرة، أي في عام 1943، ربما كان ذلك في شهـر يوليو . . . إلا أن وجه الموظفة نافـذ الصبر والصارم، جعله يكف عن عرض حديثه:

أعتقـد أن الدكتـور نكيـر والدكتـور منكر يفضـلان أن أدون شهادتي بصفة شخصية.

فُتحـت جميع أبـواب الممر مـن دون مقدمـات، وبرزت من خلالها عشرات الرؤوس المتطابقة، بدت أصغر فأصغر طبقًا لبعد المسافة، مثل بهو المرايا في المهرجانات.

Twitter: @ketab_n

(أو مثل مشهد من فيلم « سيدة من شنغهاي» مثلما قالت زوجتك، إلا أنك لم تشعر حين دخلت الحجرة لتلقي عليك التحية، وقد قرأت الفقرة الأخيرة، من خلف ظهرك).

يقومون بفحصك من قمة رأسك إلى إخمص قدميك، بعين محقق ونظرة منتقدة.

صرخت الموظفة؛ ومن أخبرك أن نكيرا ومنكرا يعملان هنا؟ على الرغم من الأعداد الهائلة للمهاجرين التي نستقبلها هنا لسوء الحظ، فإن قدراتها لم تتمكن قط من دواخل حدودنا! وفيما يتعلق ببيانات سيادتك فهى لا تظهر في أي من أجهزة الكمبيوتر لدينا، وليس في إمكاننا أن نتحمل مسئولية ملفك، بالرغم من أصلك الكاثوليكي الرسولي الروحاني الأكيد. الأفضل أن تستقل الطائرة وتتجه مباشرة إلى القاهرة.

وفي المطار، ستجد من يهتم بمتابعة أوراقك. استقل «تاكسي» على نفقتك، وتوجه إلى المقابر الجنوبية: وستجدهما ليلاً بأحد الأضرحة أو في إحدى زوايا «مدينة الموتى».

Twitter: @ketab_n

-30-

تركت الأربعينيـة الخلقية للحرب أثرها علـى حياته، فطردت النـوم من عينيه بضـراوة، وقودت دورة مجـرى أيامه بالأخيلة الدمويـة وراء الأحـلام. تكثـف الصمت غيـر المعتاد فـي مدينة «الرجـال المقدسين السبعـة» بحسبه مرت الأيـام وتعاظم الوعي بالكارثـة، التـي ترسخت في نفوس السكان الذيـن كان يعبر بهم خلال زياراتـه المتقطعة إلى الميـدان. الجولـة العرضية للمشهد العتيـق للضوء جعلته يتشبـث بأمل الاستمراريـة الوجودية، التي اهتـزت بعنف وكانت محل اختبار من قبـل العدوان المنتشر الذي اتخذه هدفًا له.

في مرحلـة زمنية ما تركـز اهتمامه على «صـاروخ» لم يكن الشبـاب قد ازدراه بعد، ولـم يتركه في وضع صعب وقاس عندما تجذبـه بوصلة الرغبـة، بحث ووجد فـي ذاك الصاروخ، وجهة الشمال لجولاته وصولاته.

خفـة ظلـه وروح الدعابة اللتان يتمتـع بهما، وأيضًـا تواطؤه الماكـر بعيـدًا عن العرضـ اليومي فـي «الحلقـة» اختصرت في فكرته عن السعادة. وقف في الميدان، وسط بهجته، معجبًا بهيئته

Twitter: @ketab_n

وغطرسته، رأسه الحليـق، مؤخرة عنقه المتينة، أسنانه الذهبية، طلاقـة اللسـان، استعراض القـوة، ومتانة الفحـل الانكشاري. تراجـع كل هذا إلى الوراء، بعيدًا جدًّا إلـى الوراء، مترجلاً بفعل خفة الزمن الذي يماثل هروب أيل سريع.

والآن لم يعد يلتقي بغير الأشباح، مثلها مثله انبثقت عن الضباب، وجوه تكسوها صرامة بالغة، مؤمنـون مخلصون في انتظار نداء المؤذن، باعة يجلسون على عتبات البازارات المهجورة، عجائز وشباب ملتصقة أسماعهم بالمذياع. اختفى السائحون في الأسواق: الشرفات البانورامية لفندقي «جلاسيـى» و«أوتيل دي فرانس» فارغة تمامًا.

تأمـل بعمق رجـلاً محكومًا عليه بالإعـدام، الأرداف العامرة لسلـة الجبال المكسـوة بالثلج، تتلألأ ضياءً، تطـل من خلف سماء صافية. حيا بإيماءة من رأسه السـادة الجالسين بالمقهى، ثم بحث عـن الاقتراب المطمئن من صوفي الحلقـة الأخير «الشرقاوي». وجده في مكانه المعتاد، على سجادته إلى جوار الحمائم المروضة، وطواقيه المطرزة بقواقع الحاج، الجلباب المرتق البائس، ورأسه الأشعث كثيف الشعر، محيا عابس لكنه مشبع بعذوبة سرية. جلس إلـى جواره مـن دون أن يستأذن منه، منتبهًا إلـى ترتيل صلواته

Twitter: @ketab_n

والأدعيـة الحارة الصادقة للحب والرحمـة. هل هناك بين منطق الحـرب ومنطـق المـال إمكانية وإن كانـت طفيفة لهـذه الكلمات الأساسية ؟ تعرف إليه الشيخ الكهل فتوقف عن ابتهالاته ليقبله.

تسرب إلى جسده شعور بالأمان والصداقة، كأنه مسكن بعد ألم حاد وعصي. بدا أن هدوء «الشرقاوي» ولطفه ينتشران في الحلقة ويكسوان دائرة المشاهدين بجمال معنوي رقيق.

حيـن لمحهـا في هيئتهـا الشفافة، وسـط الحلقة، لـم يشعر بأية دهشـة، فقط السعـادة لمعاودة رؤيتها، في مدينـة، دون شك في ذلك. ارتدت قميصًـا بسيطًا وسروالاً وبدا عليهـا السكون، تمامًا مثلما كانـا ينتظران لحظة الخروج من القاعـة، منهمكة في قراءة «كيبيدو»، بين هـواة الموسيقى، من بورتوريكو والزنوج، على العشـب تنعكس عليه أشعة الشمس فـي «واشنطن اسكوير» بجوار الجامعة.

Twitter: @ketab_n

-31-

جلسا في حجرة المعيشة يعلقان على أحداث الحرب الأخيرة- غلفهما صمت غير معتاد لمدينة بدت بعد الأخبار السريعة كأنها خاضعة من تلقاء نفسها لرعب حظر التجول، إلى أن رن الهاتف فجأة. رفعت زوجته السماعة وجعلتها لصيقة أذنها. قالت: لا بد أن المكالمة خارجية، فالصوت غريب جدًّا. جذب هو بدوره نسخته ذات الحواشي (دانتي وأخذ يقرأ بعد عدد من المرات لا حصر لها وصف حلقة الجحيم التاسعة؛ محاولاً استقراء توافقات جديدة بينها وبين «سقر» و« تارا» قصر الشيطان ومحل جيوشه بحسب النسخ الأولي من المعراج. قالت زوجته بعد برهة: نعم، إنه هنا. أعطته السماعة وهي تغطيها بكفها وتقول: إنه اتصال من مكتب السيدين «نانيتر» و«مونار»، لم أفهمهما جيدًا، على أي حال إنها مكالمة من مصر. شعر بقلبه ينتفض، واحتاج لدقائق ليملك أعصابه، تنحنح قبل أن يقرر الحديث. رد صوت نسائي حاد وصارخ: أهلاً، دقيقة من فضلك، لا تذهب. مضت برهة زمنية كأنها بلا نهاية يصاحبها صوت احتكاك معدني، وصرير وفقرات من عبارات باللغتين العربية والإنجليزية. يتردد الصوت بين لحظة وأخرى، لا تغلق الخط، نحن نبحث عن صاحب الاتصال. وينقطع الصوت من جديد. حبس أنفاسه وواصل الترقب، اعتقد

Twitter: @ketab_n

أنـه يسمع صـوت انفجـارات غاضبة مبعثهـا الريـاح، أصوات مبتهلـة، تأوهات بشرية، انفجارات هائلـة لمحركات. لاحظ؛ أنه على الرغـم من ابتعاد صـوت عاملة السنتـرال شيئًـا فشيئًا، فإن أصوات الضجيج والصرخات تحتدم وتكتسب قربًا يثير القلق. بدا كأن السماء تمطـر ألسنة من اللهب، وأن الرمال تشتعل مثل مواد الحريـق، هل كانـت عاملة السنترال تعبر عـن نفسها بهذا الشكل؟ أو أنهـم أوصلوه عن طريق الخطأ بأفران عالية وحاملات للأثقال فـي قلب مصنع للصلب؟ أو أن فضاء يوم القيامة منتصب برافعات للهدم؟ صرخ: يا آنسة. لكنه لم يستقبل سوى أصوات هائلة صادرة عن المطـارق والمثاقب الآلية تدك الأنقاض. وهذه الآيات التي وصلت إلى مسامعه، هل صـدرت عن أجساد مدفونة عاجزة عن نفسها، وسط الغبـار وقعقعة الماكينـات الضروس؟ ضاع البلاغ الآلي وسط هذا الخليط المفـزع من العواء والتوسلات والنحيب. ما الذي يجب فعله؟ قطع الاتصال؟ ويواجه بعدها خطر إهانته لهيبة من وكرامته يختبرونه فيتحولون ضده؟

فلربما يسعيان إلى إخضاعه لهذا الامتحان حتى يتحققا من مدى صبره واحترامه لمكانتيهما.

بـددت شكوكه قهقهة عالية تردد صداها، كأنه صادر من كهف أو نفـق عميق. من القادر أن يضحك، علـى هذا النحو، سواهما؟

Twitter: @ketab_n

تأكـد من أنهما في الطرف الآخـر من الخط، جعله هذا يشعر بحنو عميـق. تساءل في سعـادة: من منهمـا سيبدأ في السـؤال؟ إلا أن المحادثـة انقطعت مـن دون مقدمات. مكث لبضع ثـوان، أسيرًا للإحباط، ثـم صرخ بكل ما أوتى من قوة: يـا آنسة، لو سمحت، لقـد انقطع الاتصال، هل تسمعيني؟ بيد أنـه لم يسمع سوى صوت المجيب الآلـي، الذي أخذ يردد بالعربية مـن دون توقف: بسبب انشغـال جميع الخطـوط نأسف لعـدم استقبال مكالمتـك، الرجاء الاتصال في وقت لاحق.

Twitter: @ketab_n

-32-

انحرف عن الطريق المستقيم الذي تخلص فيه من نعليه؛ ليصل إلى الأفلاك المضيئة التي وصفها «ابن عربي»، تخيل أنه ولج داخل مشهد لأرض سفلية، بؤر مكسوة بنباتات متشابكة معروفة في بلاده باسم «الجندرة». لمح عن يمينه في مجال السماء الأولى ملاكًا نصفه الأعلى ثلج والسفلى نار، يدعو في أناشيده الخلق كافة، سواء كانت أجسادهم رقيقة أو بدينة، ليصهر عطف قلوبهم في جسم واحد، مثلما في جسده؛ حيث يتحد الثلج بالنار بالرغم من طبيعتهما المتناقضة. أخذ يحصي العدد القليل من المسافرين إلى الطريق المستقيم، يبتعدون شيئًا فشيئًا نحو صراط النور: عرض عليهم أحدهم أكوابًا من العسل والخمر واللبن لتروي ظمأهم، غير أنهم اقتداءً بالنبي، تخيروا اللبن الحليب بامتياز. إلا أن عقبات الطريق المتموج الوعر، تحيط بها أسوار الشوك غارقة في ظلام اصطناعي، كانت تجبرهم على المضي قدمًا بحذر بالغ، خشية السقوط أو الانغماس في إحدى الآبار الجانبية، التي تعج بالثعابين والحشرات.

بينما تابعت هي فريق الحجاج إلى درب النور، فأومأت إليه بإشارة أن يعود أدراجه. بيد أنه، لسوء الحظ، لم تطاوعه قدماه مثلما في رؤيا السائرين «لابن عربي» في «سَلمي». حينئذ لمح

Twitter: @ketab_n

السيـدة ذات المظلة، ترتـدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشـى بالدانتيلا والشرائـط الكبيرة، تتحلى بعقـود من الخرز، وميداليات، وأحجار كريمة، وجوارب بيضاء، وحذاء ذي كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة.

كانت تدخن سيجارة مثبتة في مبسم، تحرك مروحتها بغضب، كأنها مختنقة من الحر القائظ.

Bonjour l'ami, ne soyez pas trop pressé! La route est trés longue et fatigante. Vous ne voulez pas boire un verre avec moi?(5)

(أتظهر مرة أخـرى هنا؟ ألم يتركها بصحبـة المتخصصين في دراسات الإسلام خلال الفقرة التليفزيونية؟)

Hep jeune homme! Si me je permets de vous apeler comme ca en depit du fait que vous n'ayez plus vingt ans c'est parce que vous conservez le charm et l'espirt de la jeunesse, sa seduction!

J'aimerais pouvoir parler avec vous dans un

(5) لا داعي للاستعجال، فالطريق طويل ومرهق، ألا تريد أن تشرب كأسا معي؟ (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

endroit plus intime ...[6]

تناسبت عيناها الجاحظتان الزرقاء اللون، المحاطتان بحاجبين اصطناعيين وتجاعيد غائرة مع فمها الشره النهم، وأيضًا طرف لسانها المتعرج وخلجات امرأة وقحة داهمتها السنون على حين غرة.

Je connais un motel pres d'ici.

Chambres tout confort, boissons, lumiere indirecte, metals aquatique, videos porno...[7]

وغمزته بعينها بحركة تشبه الكاميرا بين لقطة وأخرى.

Venez, Je vous prends par le bras! Il n'ya rien de meilleur au monde qu' une bonne partie de Jambes en l'aire avec une experte comme moi![8]

ماذا عن هيئة وجهها الشبيهة بالعرائس المتحركة، هل ستمتد؟ أبعد وجهها عنه بصفعة من يده، واستيقظ في هذه اللحظة عينها.

(6) ها.. أيها الشاب اسمح لي أن أناديك هكذا رغم أنك لم تعد في العشرين من عمرك، لأنك محتفظ بروح الشباب وإغوائه! (المترجمة)

(7) أعرف فندقا صغيرا بالقرب من هنا؛ حجرات مريحة ومشروبات وإضاءة خافتة، ومرتبة مائية وفيديوهات إباحية. (المترجمة)

(8) تعال، سآخذك من ذراعك! فلا شيء أفضل في العالم من جولة ترفع فيها ساقيك مع خبيرة مثلي. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

-33-

كنت في منزلك بباريس، ترقد بجانب زوجتك، منهمكًا في الكتاب الذي أنت بصدد تأليفه، وفيما أنت في غفوة، ظهر لك شاب متين البنية طويل، صدره قوي عريض، أعضاؤه مشدودة رشيقة. يلمع جلده بوميض فوسفوري، فأدركت حين رأيت رقته وخفته، أنه الشخص نفسه الذي التقيت به في «الحمام». قال: انهض، ضع ملابسك، واتبعني. أطعت أمره - متعمدًا أن تطأ الأرض بخفة، وتبعته إلى المكتب. هناك، أشار الشاب المجهول بإصبعه إلى الطاولة التي ستعمل عليها، وأمرك أن تجلس. لمحت بين الملفات رزم الأوراق الهولندية الفاخرة ريشة شفافة، طويلة وعريضة، تضاهي في طولها مسيرة ليلة كاملة على الأقل. أمره: امسك بها وابدأ في الكتابة من دون توقف حين آمرك بذلك. أطعته، يملؤك الرعب والإجلال، وبدأ يملي عليك بصوت ثابت، محددًا النقاط، الفصلات، الأقواس، الشرطتين، علامات الاستفهام والفواصل البيضاء، والـ 32 فصلاً التي تشكل هذا الكتاب حتى هذه اللحظة.

كان الفتى يرتفع في المكان، ويقترب منك بالسرعة نفسها التي ينطلق بها من الأرض للهواء، متكئًا على بساط غير مرئي. على الرغم من استغراقك في مهمة الكتابة، فقد لاحظت جسده شفيفًا

Twitter: @ketab_n

فريـدًا: فكنت قـادرًا على رؤيـة قلبه المضـيء، ونخاع عظامه، مثـل الخيط الأبيض داخل مقبض من الكريستال. حتى إنك خمنت أفـكاره - مثلما قرأ هو أفـكارك - إلى الدرجة التي كنت تسبق فيها ما يمليك، فتستبق الجملة التي يوشك أن يمليها عليك. كانت المهمة شاقة، لكنك لم تشعر بأي تعـب. كان دنوه منك والشذى المنبعث منه يغرسان في نفسك إحساسًا بالرقة، النداوة والأمان.

ظللـت طـوال الليل تؤلـف الكتاب فـي حالة مبهجـة ومتأججة فـي الوقت نفسـه. وحين شقشق الفجر، حيـن أضفى شعاع الفجر بصيصه على الأسقـف الأردوازية، ودعك رسولـك بإيماءة من رأسـه وتبخر في الهواء مثل إحدى شخصيات شهرزاد في مخادع الخليفة العباسي.

رجعـت إلى غرفتك فوجدت زوجتك نائمـة في وضع جنيني، غير أنهـا استيقظت حين تسللت إلى جوارهـا، وسألتك عن مبعث تهيجك واغتباطك. فحكيت لها ما جرى. لم تصدق ما سمعته منك، ونصحتـك أن ترقد وتستريح لبضع ساعات حتى تعوض سهرك. لكنك رغبت في الاتصال بالصديق الذي يكتب نصوصك على الآلة الكاتبة، وتسلم له مخطوطك الذي أملاه عليك الملاك.

صاحت: هل أنت مجنون؟ سيعتبرك معتوهًا ويضحك منك! من سيعتقد أنـك ألفت الكتاب خلال جلسة واحدة فـي ليلة وحسب؟ ألا

Twitter: @ketab_n

تعتقد أنه سيخبرك أن ما تحكيه ليس إلا ترهات وتخاريف؟ ولتثبت لها أنك لم تكن تحت تأثير حلم، ذهبت إلى مكتبك وأحضرت الدليل لتريها إياه. حينئذ فقط وقعت في حيرة، مثل التي تملكت ابن عربي حسب اعترافه، حين اكتشفت اختفاء الريشة المتألقة وبقاء الـ32 فصلاً مكتوبة على الماكينة على حالها.

أما ما قمت بإضافته فلم يكن غير مواءمة نصية من كتاب «المعراج» الذي أمر بترجمته الملك ألفونسو العاشر الحكيم، الذي استخدمه دانتي ليؤلف كتاب «الكوميديا الإلهية».

Twitter: @ketab_n

-34-

بعد ذلك ، بعد فظاعة ما حدث ، أخذ يبحث شاخصًا إلى الماضي ، بمفرده في البداية ثم بصحبة زوجته ، يرصد العلامات المشيرة إلى وداع وشيك وبوادر الهجرة . يتذكرها بينما؛ هى جالسة إلى جوار الطاولة المنخفضة في المكتب القديم ، وقد ارتسمت على وجهها الابتسامة الواثقة نفسها في الصورة التي يتأملها ، وهي تدخن سجائر «الجاولويسيس بلوز» ، أو بينما تطفئ السيجارة بعناية في المرمدة الافتراضية .

كانا يتحدثان عن كتاب «الكوميديا الإلهية» وعلاقته بالتصوف الإسلامي . أخذت تقرأ - بينما هى معلقة بحساب عكسي لا يرحم لبعض نبضات القلب القصيرة الهشة - «وهى لا تدري» - قرأت منتشية شعر « ابن عربي»:

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعًى لغزلان وديرًا لرهبان

وبيتًا لأصنام وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّي توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

فإذا كان غطاء الرحمة يشمل كل ما هو مخلوق ، بما في ذلك الأحجار الجماد نفسها- وهى جامعة مثل غيرها- ويعظمون الوجود ، ألم يمزق «ابن عربى» حجب «دانتى» وحدوده في

Twitter: @ketab_n

رؤيتـه لما وراء القبـور؟ كانت تنظر عبر النافـذة المواربة تتطلع إلـى الأسطـح الأردواز، وإلى خليـط السحب المتنوعـة الملونة بأشعة الشمس، تعتريها عاطفة لم يفسرها هو نفسه. على نحو جيد، منهمـكًا بشكل دائم في البعد الأدبي الصـرف لدردشتهما. انطلقت حينئذ تتحدث بهدوء عن عنف العالم. لم تقصد عنف الكوكب الذي يعيشـان عليه، بـل الكون الشاسع بلا حـدود؛ كواكب نارية تبعث أشعـة قاتلة، نجومـا ميتة وبـاردة، أجراما تبـث عناصر مشعة، تسبب إشعاعات ذات طاقة هائلة غير قابلة للتفسير، كتلة من السديم الحلزونى للمجرات، وثقوباً سوداء تشد جاذبيتها إلى قلب الأجرام السماوية القريبة. عنف هائل وحشي لا مثيل له ينتج عن نجوم بعيدة عـن مجراتنا الصغيـرة بملايين السنوات الضوئيـة، فتشعل جزءًا طفيفًـا من طاقتها في أثناء وجودها المؤقـت لتتلاشى إثر انفجار لا يمكن تخيل أبعاده، فتسبب صدمات وحشية، وفيضاً من الأشعات ذات قـوة ساحقـة، ومعدلات سرعات تسبـب الغثيان، وكوارث متواليـة في عالـم الضوضاء والغضـب، هذا العالـم المترسخ في الفوضى، الدعوى، الالتهام، اللقـاء الأعمى للقوى المتعارضة، كل مـا وصفـه «روخاس» في عملـه «لاثيليستينـا». أتذكر ذلك؟ توقفت عن الحديث. وجال في الهواء سؤال لم تستطع صياغته؛

أمـن الممكن أن توجد ذرة مـن الحب والطيبة في فلك لا حدود للإبـادة والرعب فيه؟ صمـت كلاهما، وأخذا يتأمـلان تشكيلات

Twitter: @ketab_n

السحب غريبة التكوين المتوعدة في كتلتها السوداء المحكمة. وأخيرًا، قالت بينما تترك مجلسها: سوف تمطر.

(أترى هل ترك لها «الدليل الروحي» لمولينوس، ثم دعاها إلى العشاء في اليوم التالي؟)

أجابت زوجته: لا، بل كان ذلك في اليوم نفسه. قضيتما الأمسية تراجعان الترجمات، وطلبت منها البقاء معنا. أذكر أنها كانت ترتدي كنزة صوفية، وبنطالاً جينزاً، والسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصورة.

هل كان في سلوكها وحديثها شيء ما يجذب الانتباه؟

بحثا واستحثا ذاكرتيهما بشأن تلك الليلة، والحديث مع المدعوين الآخرين، والإشارات الأدبية والسينمائية، من دون ملاحظة أن ثمة وجود غير مرئي كان يترصد لهما من الخلف، حاضرًا في المشهد، قبل أن يتملك جسدها ويكلل هامتها دائمًا بهالة الشباب الغض الدائم أمام أعين أصدقائها.

(لم يكن هناك ما يدعو إلى التنبؤ بهذه النهاية المباغتة، أو إلى الخطوة الوشيكة نحو عالم الخفة).

بينما تودعك طلبت منك كتابًا، وذهبت لتبحث عنه في الاستوديو.

(كانت زوجتك على حق: في ذلك الوقت أعرتها «الدليل» وقبلتها في وجنتيها أمام باب المصعد).

Twitter: @ketab_n

-35-

وتحررت أخيرًا من مضايقة السيدة ذات المظلة، فتتمكن من التجول ملء ذراعيك، فتطوف في الفضاءات السماوية الرحبة، وتتيقن من دقة ما جاء في نسختك من كتاب «المعراج» أو «الصعود».

ستسافر بمفردك مثلما اعتدت في الأرض، بعيدًا عن الجولات السياحية وحافلتها مكيفة الهواء، والخلفية الموسيقية والتعليقات المسجلة قبلاً، والمرشدين السياحيين الذين يتحدثون لغات عدة. مستغرقًا في قراءتك عن عالم الآخرة، تتوقف عن الحوم والارتفاع كأنك ريشة لتنهمك في تأمل الملائكة النوريين، الطيور ذات الخضرة العجيبة، والأنبياء جلوس على مقاعد مضيئة، ملفوفة رؤوسهم بأقمشة صافية رائقة، أرواح من نار، حدقات عيون تطرف سبعين ألف مرة في اليوم من خشية الله، أهداب طويلة باهرة وجميلة مثل قوس قزح، مؤذنون صوتهم عذب ينادون الأرواح المباركة إلى الله، فتهرع آلاف الخلق وتتقارب تبتهل التوحيد الإلهي من جميع الجهات. تلج إلى فيضهم تلمح جسرًا بريقًا أكثر رهافة من الشعرة أو من حد السيف، تعبره الأرواح البائسة وتحاول أن تتوازن، مخافة السقوط في هاوية جهنم. تقلب صفحات الكتاب محاولاً أن تتخيل الملائكة ذوات السبعين ألف

Twitter: @ketab_n

وجه، لكل وجه سبعون ألف عين، مثلها مثل المشاهدات المجهرية التي ستستقطب مواد متعددة، بانكساراتها الضوئية الرائعة، التأليه البصري، والجمال المحير، ستلمح ثلاث شخصيات مألوفة، يجلسون إلى طاولة دراسية مرفوعة على سقالة، فيبدون مثل الناجين من الغرق الذين احتموا بجزيرة مهجورة. تقترب منهم فتتأكد أنهم «جورج صاند»، وعالم السياسة، والمحلل النفساني، لايزالون منهمكين في مناقشاتهم النظرية، على الرغم من أنه لا أحد يحيط بهم أو يعير كلماتهم انتباهًا. وبدا هناك الشاب ذو الجلباب الرث هضيم الوجه، يضع طاقية العفريت، ويدخن نارجيلة « الكيف» بينما يجلس القرفصاء عند بوابة « الحمام»، يقبض عليهم مع طاولتهم واضعًا إياها على صفحة يديه، ويبتسم ببشاشة طفل تملك عشًا للعصافير.

هل كان يحميهم من خطر ما؟ أم سينفخ فيهم ليذروهم مثل زغب النباتات؟ أم ترى سيستيقظ قريبًا في خصه الحقير في «رياض الزيتون» ويقص على حارس الحمام فحوى حلمه العجيب؟

هل ستتجلي في حلمه؟

سؤال يفزعك: من الحالم ومن المحلوم به؟

Twitter: @ketab_n

-36-

جـذب الثور من قرنيـه، وتعلق بأهداب الطائـرة، وطار إلى القاهـرة. كانت المسافة مثل حلم قصير، تمكن من خلاله من تأمل تفاهة العالم، ضئيلاً مثل حبة الخردل في كف اليد. وعند وصوله، وقـع كل شـيء مثلما تنبـأت موظفـة الحسابات. لمـح بين رجال الشرطـة والمحققين عند نقطة رقابـة المسافرين شاب الحمام تكلل هامتـه هالة من الضيـاء الرصين. أدرك أن الشـاب كان يخترق الأجساد مـن دون أن يلحق بها ضررًا، ومـن دون أن تشعر بها أنفسهـم. قرر أن يتبع خطواته ويحذو حذوه ويفعل مثله. وبمجرد أن لمسـ الآخر نعله مـن الأرض، يطأ هو مكانه فـي التو، يعبر الحواجـز، واحدًا تلو الآخر على النسـق نفسه، من دون أن يختم لـه أحدهم جـواز سفره، أو حتـى يلاحظ دخولـه. توقفت سيارة أجرة سوداء لامعة، مظهرها عظائي نهري حذر، تنتظر عند باب مغـادرة المسافرين وانطلقت حال ركبا فيهـا. عبرا بسرعة مدينة مهجـورة، تشبه المدن قبل الإفطار في شهر رمضان، فلم يصادفا سيـارات أخـرى أو أية إشـارات للمـرور، كان السائق يضحك ويصفـر ويصر على أسنانه، ويصـدر أصواتًا من حلقه، ويتنفس محدثًا ضجيجًا؛ كأنه ملبوس بأمل مرح وفوضوي.

Twitter: @ketab_n

أو كان يـدري إلى أين يسيـر بهما؟ لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم يشـر حتى إلـى نقطة مقصده، لكن هذا الحـوذي - فضل أن يطلق عليه هذا الاسـم - كان يعرف طريقه جيدًا وبدا راضيًا عن المهمة التي يقوم بها، ومنغمسًا في جولته الليلية والاستمتاع بعنفها.

هل واجـه جسدًا خفيفًا من البـرزخ، أم كان تجليًّا من تجلياته؟ حـاول عبثًا أن يكتشف صورتـه في المرآة الكفيفـة التي تعكس ما في الخلـف، بيد أن العمامة التي اعتمرهـا جنبته نظرات الآخرين الفضولية. هل كان يمتلك موهبة الكلمة، أم فقط يقدر على إصدار هذا السجل من الأصوات الخام، التي يؤديها من تأثر لرؤيا مبهجة أو من نشوة الإيلاج؟

مضـت المركبـة تقطـع بنعومـة ملغـزة الطريق عنـد ضريح «قايتبـاي»، وعلـى اليسار منها جبـل «المقطـم» المقدس، تسير السيـارة بمحـاذاة الأبـواب والأسـوار الخلفية للقلعـة، ثم تنحدر نحـو «باب القرافـة»، فتتوغل فيه، وتستقر فـي النهاية بـ«مدينة الموتـى». لم ينر ضوء القمر الآثار الشاهدة والنصب التذكارية، أو قبـاب الأضرحة المخططـة، أو الشوارع المغبـرة القريبة من مسجـد «الإمـام الشافعـي». لاحـظ أن الحوذي أخـذ يسرع في صيحاتـه، واللهـاث المتشنج حيـن انحرف جهة اليميـن ليخترق الطريق، الذي عبره من قبل في الحقيقة والحلم، نحو المدفن الذي

Twitter: @ketab_n

نـام فيه خلال إقامته السابقة. تعرف عليه على الرغم من الضباب الكثيف، فتلمس البوابة الحديدية التي يسكّرها الكهل بحرص.

كانت مفتوحة فدفعها ثم أغلقها خلفه. وهجره رسوله والحوذي، سمـع ضجيج السيـارة وهى تنطلـق وتبتعد عنه فـي سرية. تسلل بخطـوات هادئة صوب الخصـم الذي يأوي فيـه الحارس شيطانًا فـي قاع بئر. أتـرى هل اتخذ الكهـل سبل حيطتـه الفطرية بترك الباب مفتوحًـا أم أن المضيف أعد مفاجأة ما بالتواطؤ مع الحارس المشاغـب الشيطانـي؟. واصل سيـره إلى أن بلـغ السلم ومدخل الضريح، ثـم دفع الباب برفق متلمسًا يبحـث عن فراش الحارس إلى جوار بلاطة المدفن الصلبة. لا يزال العجوز في مكانه كما في السابق، تدلل على وجوده أنفاسه المتقطعة. استعد ليرقد إلى جواره حيـن سمع صوتًا جبارًا يأمره بغلق القبر. أطاع الأمر بسرعة فيما كان يحاول أن يحـدد وسط هذا الضباب الكثيف والصمت المطبق مصدر الميكروفون أو مكبـر الصوت الذي صدر عنه هذا النداء. وفجأة أضيئت شاشة تليفزيونية.

Twitter: @ketab_n

مستلقيًا في قبرك، مثل ميت.

(مـن أسبل جفنيك، وسد فتحتي أذنيـك وتجويف أنفك بالقطن، وربط ساقيك وفكيـك بشريط، وشبك يديـك على صدرك ووجه جسدك ناحية اليمين في اتجاه القبلة؟)

تتأمـل خيـالات خراب ودمـار: أسـوار من أحجـار سوداء، واجهـات منهارة، ركام مختلط من أسـلاك التليفون والكهرباء، حفر ضخمة من أثر القنابل، مداخن محطمة تطوقها أبخرة صفراء سامـة. تـدور الكاميرا بحركة بطيئـة في شماتـة، ووسط مشاهد النيران الشبيهة بيوم القيامـة، والصخور الكبريتية، والآبار تلفظ ألسنـة النار على خلفيـة شمس حارقـة وسوداء، أشـواط نهارية تظلم تدريجيًّـا، وسحب كثيفة ومعتمة، أضـواء قاطعة تنبعث من الأرضـ، ليـل اصطناعي مخيف. هـل تنفخ ريـاح عقيم، صلبة وقاسية مثل امرأة عاقر؟ سيقول الصوت: لا، هذه ليست رسومات «دوري» أو لوحـات «بوسكو». لا تبحث في «أناشيد الجحيم» أو «المعراج»، يظهـر نكير ومنكر يضحكان خـلال التشويش الذي يعترض الشاشة.

Twitter: @ketab_n

انظـر . . انظر جيـدًا لما صنعـت أيديكم، فما الحاجـة إلى أن نكـرر ما اخترعتموه أنتم ؟ نيران، ملايين البؤر النارية من جميع الأحجـام والأشكال، ألسنة لهب متموجـة وحادة، فوهات بركان تصـدر الكبريت الأحمـر، مخلوقات منصهـرة، أجساد مشوهة، وأخـرى لأطفال ونسـاء يحترقون مثل القطـن المندوف، دوائر «دانتـي» التسعة، ودرجـات جهنم السبعة في «كتـاب المعراج» بتعدداتها المتنوعة جميعها حاضرة هنا. إلا أنكم قمتم بخلط الأبرياء مـع المذنبين فعاقبتـم الأوائل، وكللتـم رؤوس المذنبيـن بأكاليل الغار.

أمعن النظر في هذا التجمع الفخور لآباء القذائف الباليستية ذات الرؤوس الكيميائيـة والنووية، والقنابل عديمـة الضغط والإبادة العلمية المقننة، تأمل هؤلاء المصنعين والخبراء ومصممي الأسلحة الذكيـة والنظيفة، التي توجه بأشعة الليـزر والشاشات. هم وقادة الطائرات الذين يلقون قذائفهم، ويبذرون الموت في الأرض من دون مبالاة مثل «ربات القدر». سوف يتألمون من عذاب خاص يجهله مؤلفو الكتب التي تشبعت أنت بها . واحدة من هذه الطائرات غير المرئية التي لا يتمكن الرادار من رصدها، يصوبون ضرباتهم ناحية هدف طاهر، غير معروف وبعيد، بأمر من القيادة العليا من دون التنبه؛ أن الشحنة القاتلة تتوجه صوب منزلهم.

Twitter: @ketab_n

أجل صوب أسرهم العزيزة التي يحملون صورها في محافظهم، أو يلصقونها عند مربع أجهزة التحكم في الجهاز، هذه الوجوه العذبة الضاحكة لأولادهم وزوجاتهم. تأمل وجوههم التي سحقها الرعب مصحوبًا بيأس أطرافهم المتشنجة وعجزها، وأفواههم المفتوحة على نواح بلا طائل، قبل أن تسحقهم الأسلحة الجديدة الفتاكة وتفتتهم.

مشهد استغرق ثواني، ولكنها ثوان ممتدة بلا نهاية، وتتكرر تريليونات المرات إلى يوم الدين.

تتردد ضحكات منكر ونكير في القبة وتتلاحق في صدى الصوت، فيما يبث التليفزيون مشاهد يختلط فيها الرعب بالحنان والسكون، ثم يقولون إن العقاب القاسي سينال من الأصوليين وتقنيتهم العلمية.

انتهى الشريط، وابتلع الظلام المدفن. شعرت بالقلق والخوف من أن يتركاك من دون أن تخضع للفحص الإجباري، فرفعت صوتك لتسأل عما قررا أن يفعلا بك: لقد أتيت برغبتك لتعرفه، لتعرف مصيرك، ولتخرج نهائيًا من الأربعينية.

تضاء الشاشة مجددًا، وتقرأ الرسالة الموجهة إليك: هذه مجرد رؤية. نحن بانتظارك هنا حين تموت بالفعل. بينما تنفصل عن حلمك، تسمع إلى جانبك شخيرًا خافتًا محتملاً للشيخ الكهل.

Twitter: @ketab_n

انتهت الحرب وحل الشتات. أخذ يتابع من نافذة منزله قافلة الهاربين التعسة، فيما ألصق أنفه في الزجاج الذي كسته حدة أجواء الفصل بالضباب. في البداية بدت قافلة السيارات، الحافلات والسيارات الرياضية الصغيرة المحملة بكومات متاع وعائلات، ثم عربات تجرها الحيوانات، محمل عليها حقائب، وأطفال، وخراف، وفي النهاية؛ صف من النساء والرجال يرتجفون جميعهم من البرد، منهكين من طول المسيرة، شيوخ عاجزون ومرضى، أمهات يحملن أطفالهن على ظهورهن، على حافة الهلاك. وقفوا ينتحبون أو يقضون حاجتهم، أو يطلبون كسرة خبز، أو جرعات حساء من مواطنيهم، يبدون في حالة من الفوضى. سيارات ودراجات بخارية متعطلة، حيوانات نافقة، مراتب وأغطية متهرئة ملقاة في الطريق، وذلك خلال الهروب اليائس ناحية الجبال. حرمهم الرعب من القصف، وقمع الجيش الوحشي من التفكير بحكمة، فأضحوا مثل قطيع بائس مرتعب، أو خلية نحل مدهوسة ومتناثرة. فهذا الطفل يمسك بشقيقه الأصغر، وهذا الكهل يحمل على كتفيه الجسد الضامر العليل لزوجته، هل يعرفون جميعًا إلى أين يذهبون ومن سيستقبلهم؟ وهل سيسمح لهم حراس الحدود؟ أم سيدفعون بأعقاب أسلحتهم؟ هل سيضعونهم خلف الأسوار في أماكن موحشة؟ أم ترى سيعيدونه إلى أعدائهم

Twitter: @ketab_n

مـن دون هـوادة؟ لـم يبدُ أن أحـدًا ما يعـرف، أو حتـى فكر في الأمـر. هـول الكارثة محـق كل شيء، تركوا فـي العراء الخلاء البدائـي لقصة قاسية متكررة؛ الرعـب، وغريزة البقاء وحسب، هذا الضوء لحيـوان مطارد يقبع في بؤبؤ العيـن، الشك والذهول لمـن يقتل على يد جـزار مجهول، أو خلال شعيـرة ألفية للضحايا والنذور. جلس متكورًا على نفسه في مملكته الصغيرة يشهد هجرة الشعوب بكاملها، من دون قادة أو زعماء، يعبرون البحر الأحمر من دون النبـي موسى المخلص، ولا أمل فـي أرض الميعاد عند نهايـة هروبهـم المرتكب الأهوج، أتـرى هل كانوا مـن الأكراد الناجين من مذابح حلبجة ودهوك والموصل؟ أم أنهم ببساطة ليسوا إلا مواطنيـن من بلاده، عبروا منذ اثنين وخمسين عامًا مضت من قريتهـم القطالونية، وهم أشتات قذرون يضعون أثمالاً رثة بالية، يخلفـون آثارًا من البـراز والجثث؟ ترى هل يعرض التليفزيون صور مـا يحدث في الوقـت الحالي فـي أعقاب أربعيـن يومًا من القصف الجـوي الجهنمـي، أم أنه استدعاء لذكريـات مدفونة في ذاكرته لشبح الحرب الأهلية؟

كان يشك، ولا يزال في شك.

حسنًا، مـن يكتب هذه الصفحة بحق؟ أهـو الكاتب ستيني العمر منكبًّا على طاولته، أم الطفل الغر البريء الذي شهد للمرة الأولى في حياته انهيار حلم ونهاية مباغتة لأمله.

Twitter: @ketab_n

-39-

قالت له: هل لاحظت ذلك؟ إننا في نهاية الأربعينية. يوم آخر، ونص آخر وأنفصل عنك، بعيدًا عن البرزخ، لأتلاشى تمامًا إلى الأبد في الخفية، إلى يوم البعث العظيم. أخذت تتطلع لصورتك بحزن تتخللـه ابتسامة عابرة ذائلة، مثلما في الأيام الخوالي حين كانت تتردد عليك في الأستوديو القديم الخاص بك، ومعها ترجماتها فتتحدثان على ثربانتس، روخاس، دانتي، وابن عربي. ومنحها لقاؤها غير المتوقع بك بعد عبورها مساعدة كبيرة؛ فعبء الأشياء التي لم تعبر عنها في العالم الشنيع ظل يتراكم بداخلها، كأنها حبر لا طائل منه في المحبرة، يمنعها من الإفادة منه وضعها الحالي. فهل كان ذلك نتيجة عدم انفصالها الكامل عمّا هو محسوس، مثلما اعتقدت هي؟ أم هي عين خيالك التي لم تقدر أن تتمثلها إلا في شكلها وهيأتها السابقين؟ وتعدد المفارقات الزمنية والهذيان والقفزات الزمكانية خلال فترات تجوالكم، هل هو نتاج الوجود الواقعي؟ أم يخضع للقراءات المتعمقة لـ «ابن عربي»؟ تعجز عن الرد اليقين، فاكتفيت بتأملها تطوقك الشكوك، فيما بقيت هي أو خيالها بنظر ضال شاخص إلى الأسطح وحجراتها، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة للاصفرار، والأشباح البعيدة لناطحات سحاب «لاديفانس».

Twitter: @ketab_n

هـل حانت ساعة الوداع؟ رأيتها تنهض مـن مجلسها، وتسألك مجـددًا إذا كان الدخـان يزعجـك. قالـت: سيجـارة «جلوزبلو» أخيـرة. مددت إليها المطفأة الافتراضية، كما هي العادة، ومكثت مبهوتًا إلى جوار مكتبك المغطى بالأوراق والقصاصات.

هل كانت ترتدي كنزة صوفيـة وبنطالاً جينزا مثل ذاك المساء الـذي شاطرتكم فيه العشاء ولم ترها مجددًا؟ سمعتها: اكتب، اكتب عنى ثانية. فاهتمامك واهتمـام من سيقرؤونك في المستقبل سوف يبقيني على قيد الحياة.

Twitter: @ketab_n

-40-

حـدث كل ذلك خلال فترة احتضـاري القصير. وحين انتهيت مـن الكتـاب نهضتُ مـن الفراش الذي رقـدتُ فيه مـن دون أن يلحـظ أحد، ارتديـت بذلتي الوحيدة التي حافظـت عليها، أحكمت عقـدة رباط العنق القديـم المنسي، واستقللت الحافلـة للذهاب إلى مقر المحكمـة. استعلمت من حارس الأمن الذي دلني بدوره على المصعد الذي حملني إلى الدور السابع؛ حيث يلتقي جميع المدعوين إلـى الأربعينيـة. كان المكان خاليًا حين وصلـت، ولكنني اتبعت نصيحة الساعـي، وطرقت الباب الصلب لمكتـب التحقيقات الذي عُلقت عليه لوحة معدنية مذهبة، نقش عليها اسما منكر ونكير.

انتـــهت

Twitter: @ketab_n

المؤلف فى سطور:

خوان جويتيسولو (برشلونة، ١٩٣١)

أحد القامـات الأدبية الأشهر في الأدب الناطق بالإسبانية تنوع نتاجـه الأدبي ما بين الرواية والقصة وأدب الرحلات والدراسات النقديـة والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامـه بقضايـا كونية والتعدديـة الثقافية ورغبته الجـادة وعمله الحثيـث من أجل سبر أغوار عوالم مغايـرة والتعرف على الآخر معرفـة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثـل آراء النقاد ولجان التحكيم التـي تناولت أعمالـه وارتـأت التعددية والانخراط فـي الثقافات المتنوعة ليـس فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء بينها ودروبها، وبين الثقافـة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التـي تحل فيها الثقافة الإسلاميـة العربية ركنا لا يقبل النـزاع. بهـذا الشكل تطـل كتابـات جويتيسولو بسماتهـا الكونية السرديـة لتجمـع بين الشـرق والغـرب والأيديولوجيـات الدينية والفكريـة بأنواعهـا، وهو ما تتكئ عليه بنية روايـة «الأربعينية» (١٩٩١).

Twitter: @ketab_n

المترجمة في سطور:

د. عبير محمد عبد الحافظ

- أستاذ اللغة والأدب الإسباني بقسم اللغة الإسبانية جامعة القاهرة.
- درست الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة وجامعة كومبلوتنسي مدريد.
- لها العديد من الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية الدولية المحكمة بالعربية والإسبانية.
- أشرفت على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- أستاذ زائر بجامعة ثاراجوثا، وكاستيا لا مانشا، وأوتونوما وكومبلوتنسي مدريد.
- لها ترجمات متنوعة من أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية (روبرتو أرلت، وخوليو كورتاثار، وخوسيه ماريا ميرينو، خورخي مانريكي، وبدرو مير، وغيرهم).
- تشغل حاليا منصب مدير مركز الدراسات والثقافات الأيبروأمريكية بجامعة القاهرة.

Twitter: @ketab_n

التصحيح اللغوى: هبة الله محمد

الإشراف الفنى: حسن كامل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يومًا التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلةً روحية صوفية، ينطلق منها ليرصدها في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعداً إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج، يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"المراتب السبعة" لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مروراً بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومي، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والأسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيبيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث وغيرهم.

وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دومًا خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة، حيث المساجد والمقابر والأضرحة، واستشراف الأجواء السحرية الغامضة التي تعقب الأربعينية.

صورة الغلاف للكاتب خوان جويتيسولو

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح